قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

[عدد فبراير ١٩٩٩]

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

رئيس التحرير :

نبيل أباظة

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٥٠٠	ليرة
الأردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٥	دينار
السعودية	١٢	ريالاً
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٢٥	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠	ريال
غزة	٢,٥٠	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الإمارات	١٢	درهماً
قطر	١٢	ريالا
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنكات
المانيا	١٠	ماركات
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنكات
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلناً
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا ـ أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك ـ واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٦٠ جنيها مصريا

● البريد الجوى ●

دول اتحاد البريد العربى ٢٩ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٤ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٩ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٩ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

● تلكس دولى : ٣٠٣٢١ ٠

● تلكس محلى : ٢٨٢

● قطاع الثقافة ٦ ش الصحافة

● تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

ماذا وراء بوابة الموت ؟

د. مصطفى محمود

ماذا وراء بوابة الموت

١

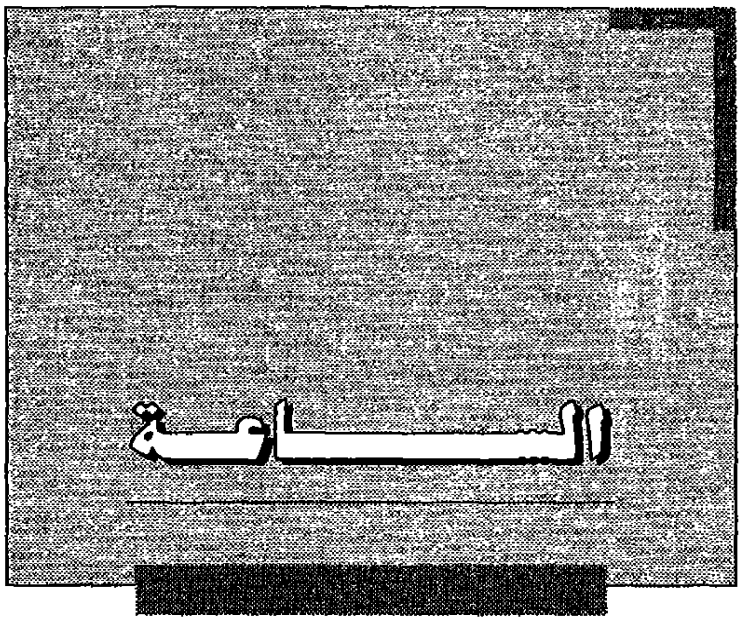

أهل الكهف الذين لبثوا نياما فى كهفهم ثلاثمائة سنة قالوا حينما تيقظوا من رقدتهم للسائل الذى سأل: كم لبثتم.. قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم.. والذى أماته الله مائة عام ثم بعثه قال نفس الجواب: يوما أو بعض يوم .

﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ (الروم: ٥٥)

هكذا يحكى القرآن عن المجرمين وما قدروه للزمن الذى عاشوه فى الدنيا والذى لبثوه فى رقدة القبر.. إنه كان مجرد ساعة.

ويقول الله لرسوله عن الكافرين ناصحا له ومطمئنا:

﴿ ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار.. بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ (الأحقاف:٣٥)

إنها أيضا كانت بطولها وعرضها مجرد ساعة.

ثم يقول - وهو أصدق القائلين - بشكل عام ومجمل عن خلقه حين يبعثون: **﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون بينهم ﴾** (يونس: ٤٥)

والأمر فى البداية يبدو محيرا، فالذى لبث ثلاثمائة سنة يقول: إنها بعض يوم ، والذى لبث مائة سنة يقول نفس الشىء كأنه

لا فرق بين المائة والثلاثمائة.. والمجرم الذى عاش ثمانين عاما ثم مات يقول لحظة البعث إنها كانت ساعة والمجرم الذى عاش خمسين عاما فقط يقول لحظة البعث: إنها كانت ساعة، والمجرم الذى عاش تسعين عاما فقط يقول لحظة بعثه، ويقسم إنها كانت ساعة.. وقد استوى الذى مات شابا والذى مات شيخا فالأربعون كالتسعون كالثمانون.. استوت فى الوعى بأنها لا تزيد على ساعة.. وكذلك الثلاثمائة عام بالمائة عام.

ويقول الله ـ وهو أصدق القائلين ـ إن هذا هو الحال العام لكل البشرية لحظة بعثها.. إن آلاف السنين التى مضت وانقضت فى عصور تلو عصور وتعاقبت بين خلافات وحروب أو أوقات سلم ورخاء يتعارفون فيها بينهم كلها كانت مجرد ساعة.. أو هكذا بدت فى وعيهم الجديد.

وتنجلى الحيرة حين نعلم أن الوعى الجديد فى الآخرة هو شعور مختلف ووعى مختلف بالامتداد والأبدية.. بينما كانت الدنيا فى حياتهم الأولى مجرد زمن ومجرد ثوان تترى لا تأبيد فيها. وأى مقدار زمنى بالنسبة للأبدية هو كم مهمل.. كما نقول فى الحساب: إن أى رقم بالنسبة للانهاية هو صفر أو أقرب ما يكون إلى الصفر.. تستوى فى ذلك العشرة والعشرون والألف والمليون كلها مقادير تافهة ومهملة بالنسبة إلى اللانهاية.. فيقول شعورنا عنها: إنها كانت مجرد ساعة تقليلا لشأنها ويصادق الله على كلامنا، فيقول هى كذلك وكأنما يقول لنا الله معاتبا:

أما كان يجب أن تصبروا على تلك الساعة بحلوها ومرها وتتعاشروا بالمعروف بدلا من أن يقتل بعضكم بعضا على ثوان تافهة من السعادة وترتكبوا كل تلك المظالم وتحملوا كل تلك

الأوزار على زمن مـخادع لا يسـاوى شيئـا فى عمـر الأبدية التى ستغدو الآن عذابا مؤبدا وبؤسا مقيما لا انقضاء له.

إنها النسبية القاتلة حينما تصبح قدرا، والملايين حينما تصبح صفرا، والعز حينما ينقلب ذلا، والكبر حينما يغدو صغارا، والغنى حينمـا يصيـر فقـرا.. وإلى الأبد.. والآن يا سادة.. وقد علمتم أن الدنيا كلها كانت مجرد ساعة ، فـهلا أدركتم ماذا تبقى فى حياتكم من دقائق فى تلك الساعة؟

وهلا عـجلتم لتـدارك أخطائكم وإصـلاح شـأنكم فى الثـوانى البـاقيـة من أعمـاركم (وما تبـقى لا يزيد عن ثوان فى الحـساب الحـقيـقى) ومن حسـن الحظ إننا لا نزال جمـيـعا أحـياء نسـعى ونروح ونغـدو فى تلك الأيام والشهـور والسنين التى هى أشـبه بالوهم.. وأننا يمكن أن نتدارك الأمر ونفيق من الغفلة.

وما نقوله للفرد منا.. نقوله للأمم.. نقـوله لإسرائيل ـ كمثال ـ التى تريد أن تعلو وتهيمن وتحكم بالمكر والظلم والقوة الأمريكية والقنابل الذرية.. لمـدة ثلاث دقائق، أو بالحـقيقـة ثوان.. نعم هى ثلاث ثوان فى المقدار الباقى من الساعة، ومن عمر التاريخ الممتد فى الوهم والخيال والذى يبدو فى أعيننا كأنه دهر.

ومن حسن الحظ أن الكارثة لم تبدأ بعد وأنه يمكن تدارك الأمر بطرح الغرور وخلع رداء الكبـر والاستعلاء والسـعى إلى السلام بنية صادقة.

أقـول هذا الكلام وأنـا أعلم أنى أتمنى علـى الله الأمـانى.. وأن قـضاء الله قـد سـبق، وقلم المشـيـئة قـد كـتب بشأن إسـرائيل ما لا رجعة فيه، وأنها ستعلو وتفسد وتظلم، وأن الدمار نازل بها لا محالة وسوء الخاتمة لاحق بها لا مفر.

والله يقول لهم: ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها** ﴾.

وهو يعلم سبحانه أنهم سوف يسيئون.. يقول : ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم**﴾.

إشارة إلى ما سوف يفعله المسلمون بدخولهم المسجد وبتدميرهم كل ما رفع اليهود من بناء وكل ما عمروا من هياكل.

ولأن الإسلام وقرآنه يقول هذا ويتنبأ لهم بهذا الشؤم. تحرك إسرائيل العالم وتؤلبه على الإسلام، وعلى المسلمين وتخطط من وراء الستار فى كل ما يجرى لإثارة الدنيا على الإسلام وأهله.

وآخر ما حدث فى هذا المسلسل كانت مؤامرة الموساد لنسف مقر الأمم المتحدة فى نيويورك التى كشفت التحقيقات تورط جماعات الضغط الصهيونى فيها ثم حاولت الحكومة الأمريكية التعمية على تلك التحقيقات.. وكان الأمل إلصاق التهمة بأى جهة إسلامية.. كالعادة.

ومن قبل ذلك كان اشتراك الموساد فى مؤامرة تفجير كنيسة سيدة النجاة فى لبنان لنفس الهدف.. لاتهام الأيدى الإسلامية.. ولإثارة الحرب الأهلية من جديد بين المسلمين والمسيحيين فى لبنان.

والمسلسل مستمر لتشويه وتلطيخ الإسلام وأهله بكل خسيس ودنىء من التهم، ولم يبق من الساعة إلا بضع ثوان تريدها إسرائيل لنفسهاعلوا واستكبارا فى الأرض وتطلب هذا العلو بأى ثمن.

ولن يجدى نصحى شيئا ولن يغير من قدر الله شيئا، ولن يمحو حرفا مما كتب الله لهم.. وأتذكر كلمات نوح لقومه من الكفار: ﴿ **ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم** ﴾ (هود: ٣٤)

وقوله لهم فى مكان آخر يائسا من إصلاحهم:

﴿يا قوم أرأيت إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾.

ذلك لأنه لا إكراه فى سنة الله على شىء ولو كـان على الخير، وأن التخيير هو الأساس فى كل عمل لأنه أساس التكليف والثواب والعقاب.

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

وقد خيـر الله الجمادات فعرض عليهـا الأمانة وأن تكون حرة مسئولة فى حركتها أو مسيرة بالقانون الإلهى:

﴿ إنا عـرضنا الأمـانة على السـموات والأرض والـجبـال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾.

ففضلت أن تكون مسيرة بقدر الله.

والإنسان وهو القمة فى المخلوقات أقبل على حمل تلك الأمانة فى رعونة وجـهالة، وأصبح مـخيـرا فيمـا يفعل من خيـر وشر.. والداخلون إلى الـجـحـيم سـوف يدخلونهـا بأرجلهـم وبعنادهم ورفضهم.. وقـد لعنت التوراة اليهود لصلفـهم وعنادهم ورقابهم المتصلبة، وقال فيهم الإنجيل ما هو أكثر .

وها نحن أولاء قد رأينا المسلمين يتنازلون ويوقعون ويبدأون بالسلام.. وأول من ذهب إلى الكنيست كان أنور السادات المسلم.. هو الذى مد يده بالسلام وهو منتصر وغالب.

ورأينا الطرف الإسرائيلى يقـدم رجلا ويؤخر أخرى، وسـمعنا رابين يقول: أصـافح بيد واليـد الأخرى على الزناد.. وسـمعناهم يترنمون بأناشيد السـلام، ويرجمون الجنوب اللبنانى بالصواريخ

ويحتلون المزيد من الأراضى ويبنون المزيد من المستوطنات فى نفس الوقت، ورأيناهم يطاردون العـراق وكوريا الشمـالية وإيران وباكسـتان بالاتهـام بصناعة القنبلة الذرية.. وينكـرون عليهم أى بحث فى إنتاج هـذا السلاح، بينما هم يملكـون مائتى رأس نووية جاهزة للاطلاق.. ولا يـتحرك العـالم للإنكار عليهم أو تفـتيـشهم أو مطالبتهم بحظر تلك الأسلحة المدمرة.

العالم كله يساندهم فى ظلمهم ويبـرر لهم كل ما يفعلون بينما يضغط علينا للمزيد من التنازلات.

وإسرائيل تريد التطبيع فوريا وكـاملا دون أن تتنازل عن شبر من الأرض، بل علـى العكس تحـتل كل يوم المـزيد من الأرض، وتبنى المزيد من المستوطنات، وتغير بطائراتها على أراضى الغير التى لا تملكها وتدكها بالقنابل وتقتل وتحرق الأرض والزرع على مشهد من العالم، وتطالب بالتطبـيع وهى شاهرة سلاحها النووى فى وجه العرب.. وما هو بتطبيع بل تركيع.

إنهـا التاجـر الجشع الذى يريد أن يقـبض الثمن ولا يقـدم فى مقابله شيئا، وهى الطاغية الذى يباشر القتل والطغيان ويرفض أن يحاسب على جرائمه.. وهى تنسى أن ملكها ودولتها لم يتبق منها إلا دقائق وربما ثوان فى السـاعة الإلهية التى منحـها الله للدنيا.. وعقرب الثوانى يدق ثانية بثانية ويقترب من الصفر.

ولكنها هى والعالم فى سكرة.

وهى تظن أن أمامها الدهر كله لتعلو وتحكم وتسود وما هو إلا الوهم ولا يزال كلام الـله الذى قاله لموسى فى طـور سيناء يرن فى أذن الأبدية:

﴿ إن الســاعة آتـية أكـاد أخـفيـهـا لتجـزى كل نفس بمـا تسعى ﴾

ولا يزال عقرب الدقائق يجرى منذ ذلك التاريخ وعقرب الثوانى يسرع إلى غايته وقد أوشك العد على النهاية.

فى منتصف العمر

وقفت أمام قبر الرســول الكريم منكس الرأس حياء وقد هربت منى الكلمات:

كلى حياء منك يا رسول الله..

أحسنت بالتبليغ عن ربك ومـا أحسنا.. وأحسنت النصح لأمتك وما نصــحنا.. وحملت كتابك بقـوة وما حملنا.. وانتـصرت للحق وما انتصــرنا.. واكتفى بعضنا بـلحيته وقال هى سنـتك.. وقصر البعض جلبابه وقال هو أمرك.. واســتسهلوا السهل وخانوا الأهل، واكتفوا من الدين بقشرته، ومن الجهـاد بسيرته.. وقعدوا وقعدنا معهم.. وركب أكتافنا الدون والسوقة ورعاع الناس وشذاذ الآفاق وسفحوا دماءنا واستباحوا أرضنا وشتتوا شملنا.

يا نصـير اليـتامى وجـاه الضعـفـاء والمنكسرين، لن أســألك الشفـاعة فلا توجـد فى عقـيدتنا شفـاعة، بمعـنى «الوساطة» فى الآخـرة لرفع الذنوب وإنمـا الشفـاعـة فى كتـابنا تعنى «العـمل» وشفـيع الإنسان عمله وحـده وكسبـه وما صنع وما قـدم.. وإنما أسأل الله بجـاهك أن يختم لنا بتـوبة وأن يرضى عنا، فقـد وعدنا ووعده الحق أننا سندخل المسجد كما دخلناه أول مرة، وسندمـر كل مارفـعت إسرائيل مـن بناء، وكل ما شـيدت من هياكــل.. فلا توبة لنا إلا بتـوبته، ولا رضا إلا برضــاه.. ولا مدخل إلى طاعـته إلا من بابك، ولا قربى إلا من رحابك.

ادع لنا ألا يطول علينا الليل وألا يدركنا الويل.

والســلام عليك يا محـمد وصـلوات الله عليك يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حيا.

والسلام على الكرام البررة، سادة البـشر وأئمة الدنيا.. السلام على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى.. والنجوم الزواهر من صحابتك الذين عاشوا تحت ظلال السيـوف، وادع لنا نحن جندك فى مصر الذين قلت عنا: أننا خير أجناد الأرض، وإننا فى رباط إلى أن تقوم الساعـة.. أن نكون عند حسن ظنك.. وأن نكون مـصداقـا لنبوءتك وآية لرسالتك.

والسلام عليك إلى يوم يقوم الأشهاد.

مـــاذا وراء
بوابة الموت

٢

مـــاذا وراء
بـوابة المـوت

الكتب الصفراء التى تكتب عن عذاب القبر وتروى التفاصيل والمشاهد والحكايات عما يجرى داخل القبر وعن الملكين ناكر ونكير وما يقولان للميت وما يقوله الميت دفاعا عن نفسه وألوان العذاب التى يلقاها.. هى كتب كثيرة تملأ الأرصفة ويتهافت عليها الناس وأكثر ما فى هذه الكتب تخيلات.. والقضية غيبية لا علم لأحد بها والمرجع الوحيد فيها هو كلام القرآن وشهادة عالم الغيب والشهادة عن هذه الأسرار.

وما ورد في القرآن عن مصير المجرمين والجبارين واضح وقاطع.. فعذاب هؤلاء الجبارين لا ينتظر رقدتهم فى قبورهم ولا ينتظر انصراف آخر المعزين والمشيعين.. وإنما هو يلحق بهم فور موتهم وفور سقوط الواحد منهم فى مكتبه بالسكتة أو بالشيخوخة أو هبوط الدورة الدموية.. وقبل أن تكون هناك جنازة يصطف وراءها المشيعون ويهلل الأتباع والأشياع ويملأون الصحف بمقالات التمجيد.. قبل كل هذا.. وساعة الموت.. يفتح الستار عن المفاجأة وينكشف الغيب وتتوالى الأحداث.

ماذا يقول القرآن؟!

﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم.. أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون

بمـــا كنتم تقـــولون على اللـــه غـيـــر الحق وكنتـم عن آياته تستكبرون﴾ (الأنعام: الآية ٩٣)

.. اليوم.. إنها ســاعة خروج النفس المجـرمة من البدن ولحظة المـوت يتلقاها مــلائكة العذاب بـاسطى أيديهم.. بماذا؟؟ بالعـذاب الهون.. ونقرأ فى آية أخرى تفصيلا أكثر لهذا العذاب الهون:

﴿ولو ترى إذ يتـوفـى الذين كـفـروا المـلائـكة يضـربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾ (الأنفال: الاية ٥٠)

ويتكرر نفس المعنى فى سورة محمد الآية ٢٧

﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم.. ذلك بانهم اتبـعوا مـا أسخـط الله وكرهوا رضـوانه فأحـبط أعمالهم ﴾

وإحـبـاط الأعـمال إشـــارة إلى أنهـم كانـوا أصحـاب أعـمـال وإنجازات وأمجاد دنيوية.

إنه الضــرب على الوجــوه (والوجــوه هى رمــز التكريم) وعلى الأدبار وتلك غاية الإهانة.

ولا توجد إشــارة إلى أن الملائكة ينتظرون إعلان خبـر الموت فى الجرائد أو أنهم.. يتقاطرون وراء المشــيعين فى انتظار انتهاء مراســيم الدفن وانصراف الأهل والأصحاب.. وإنمـا الضرب يأتى فور خروج النفس من البدن وهى صورة أشبه بالاستقبال الحافل لأصحاب الملايين عـند نزولهم من الطائرة.. ولكن على وجه آخر غير متوقع وغير مألوف.. فهى صحوة أشبه بالصدمة.

وهناك استـقبال فـورى من نوع آخر ينتظر الصــالحين.. وهو يحدث فـور تجاوز النفس حدود الحلقـوم وخروجها من الجـسد لحظة الحشرجة دون انتظار لجنازة أو تشييع أو دفن.

يقـول القـرآن عن لحظة الحـشـرجـة هذه: **﴿ فلولا إذا بلغت**

الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم (أى أقرب إلى الرجل الذى يحتضر) **ولكن لا تبصرون.. فلولا إن كنتم غيرمدينين ترجعونها إن كنتم صادقين.. فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم.. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾**

(الواقعة: الآيات ٨٢ ـ ٩١)

إنه استقبال بالورد والريحان والترحاب والسلام والتحيات

﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين ﴾

(الواقعة: الآية ٩٢ ـــ ٩٣)

والجحيم هنا هو المنزل المعد ساعتها لنزول المكذبين الضالين.. أما الأتقياء الطيبون فلهم مصير آخر.

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ (النحل: الآية٣٢)

فإذا جئنا إلى قوم نوح فإنا نراهم يدخلون النار فور غرقهم دون سؤال ودون حساب.. والكلام هنا عن النفوس وليس الأجساد فالأجساد هلكت غرقا أو أكلها التماسيح.

﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ (نوح: الآية ٢٥)

النار أعقبت الغرق مباشرة.. فما فعله قوم نوح برسولهم على مدى ألف سنة إلا خمسين عاما هو عمر هذا النبى قضاها فى جدال يائس.. هى مسألة ليست فى حاجة إلى إعادة نظر كل هذا ولم تقم الساعة بعد ولم يحدث بعث ولا حشر ولا حساب.

وما نقوله هو كلام يتعلق بعذاب يلحق بالنفوس فور الموت

وانكشاف مستورات الغيب ومعرفة كل نفس بمقامها عند ربها وما ينتظرها من مصير فالأجساد هلكت وأصبحت ترابا.

وعذاب القبور ورد مرة واحدة عن فرعون وعصابته.. يقول ربنا في قرآنه: **﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** (غافر: الآية ٤٦)

وعذاب القبور هنا هو عذاب نفسى برزخى.. فهو عرض مستمر على النفوس الشاخصة في قبورها ارتقابا لمصير مشئوم وكابوس متواصل عن أهوال قادمة حينما تقوم الساعة.

أما الساعة والقيامة والبعث وعودة النفوس إلى التجسد (هذه المرة فى أجساد ملكية لا تفنى ولا تهلك) فهى مرحلة أخرى.. العذاب فيها أشد والنعيم فيها أعظم.. وهو أمر لا يحدث إلا عند نفخة الصور.

يقول القرآن:

﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون.. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ (يس: الآيات ٥١ ـ ٥٣)..

إنها الصحوة الثانية.. وكانت الصحوة الأولى هى خروج النفس من البدن لحظة الموت وماجرى فيها من مفاجآت.. أما هذه المرة فهى قيام وانتفاضة من رقدة القبر فى أعقاب صيحة هائلة.. فإذا بالنفوس قد عادت أجسادا ووقفت ترتجف فى ارتقاب يوم مهول.

﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون.. ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا

الصراط فانى يبصرون﴾ (يس: الآية ٦٥ ـ ٦٦)

إنه حساب من نوع فريد تتكلم فيه الأيدى والأرجل وتشهد الجوارح على صاحبها بما كانت تفعل ويحاصر المذنب فلا يجد مخرجا..

أما الصراط فهو حدث غيبى آخر واختبار رهيب لا نعلم عنه شيئا، ثم يكون الحشر الأعظم واليوم المشهود الذى يُجمع له الناس ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾**

(هود: الآية ١٠٣)

حتى الوحوش يقول ربنا أنها تحشر **﴿وإذا الوحوش حشرت﴾** (التكوير: الآية ٥)

والله وحده يعلم كيف.. ولماذا.. وهل عليها حساب.. أم أنه استكمال لذروة الهيبة والجلال فى ذلك الموقف العظيم.

فالعذاب إذن عذابان والعقاب عقابان.. عذاب برزخى غيبى يبدأ من لحظة الموت وخروج النفس من الجسد وعذاب جسدى بعد نفخة الصور والقيامة والبعث وتجسد الأنفس من جديد فى ثوبها الأبدى الذى لا يبلى ولا يموت.. ويكون بعد الحساب ويستمر أبديا.. فالداخلون النار لا يخرجون منها **﴿وما هم بخارجين من النار﴾** (البقرة: الآية ١٦٧)

﴿هذا خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾

(الحج: الآيات ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١)

ومن الواضح أنه عذاب أشد من العذاب البرزخى للنفوس

ساعة الموت لأنه أكثر تشخصا ولأنه محسوس جسديا.

والخوض فى أى تفاصيل غيبية عن عالم ما بعد الموت خارجا عن نطاق القرآن هو فضول محذور فلا أحد يعلم عن هذا العالم المحجوب شيئا.

وأكثر الأحاديث التى تتكلم فى هذه الأشياء هى إسرائيليات وأحاديث موضوعة أو ضعيفة السند.

والمتفلسفون الذين يتساءلون.. كيف يعاقب الله عبيده على ذنوب محدودة فى الزمن بعقاب لا محدود فى الأبد.. ألا ينافى ذلك الرحمة الإلهية.. نقول لهم إن الذنوب مع الإصرار لا تعود ذنوبا محدودة بل تصبح ذنوبا متأصلة ملازمة لصاحبها لا ينفك عنها.

يقول القرآن عن المجرمين الذين سألوا الله أن يردهم إلى الدنيا ليعملوا صالحا

يقول ربنا **﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾** (الأنعام: الآية ٢٨)

وهذا علم إلهى بهذا الطراز من النفوس.. فهم أهل النار الذين هم أهلها.. وهم الجبارون فى الدنيا الذين كانوا يقتلون الأبرياء بالجملة والذين كانوا يقدمون خصومهم للسجون والمحارق وكانوا من أهل الإصرار حتى لحظة موتهم.

يقول ربنا عن الجبارين من أصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم أحياء: **﴿قتل أصحاب الأخدود.. النار ذات الوقود.. إذ هم عليها قعود.. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود.. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.. الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء**

شهيد.. إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ (البروج: الآيات ٣ ـ ١٠)

والمعنى أن رحمة الله ومغفرته كانت ستلحق بهم لو أنهم تابوا فى آخر لحظة قبل موتهم.

وباب التوبة مفتوح للجميع حتى ساعة الحشرجة.

ويستثنى الله من العذاب الذين تابوا وأصلحوا وبينوا أى بينوا برجوعهم وبأعمالهم فيقول:

﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ (البقرة: الآية ١٦٠)

والمعنى أن الله فتح باب رحمته ومغفرته حتى لهؤلاء الجبابرة رغم أفعالهم إلى ساعة الحشرجة.. ولكنهم لم يرجعوا ولم يستغفروا ولم يتوبوا

هؤلاء إذن هم أهل النار الذين هم أهلها.. فأى غرابة فى أن تعود النفوس النارية إلى النار.. وإبليس من الجن وهو مثلهم مخلوق من نار السموم والنار مكانه فى النهاية بحكم طبيعته.. وكل النفوس الإبليسية سوف تعود فى النهاية إلى مستقرها فى جهنم.. وليس فى هذا ما ينافي العدل بل هو منتهى العدل.. أن تنتهى كل نفس إلى مكانها.. وأن تعود النار إلى النار.

ولو تأمل الناس فى مصيرهم وفى حياتهم لآمن الكل، ولو تأملوا فى دنياهم ومباهجها الفانية ولذاتها المحدودة والموت والأمراض والمعاطب والأوجاع التى تحف بها لما غرقوا فيها ولما استسلموا لدنياها وتفاهاتها .

ولو تأملوا الموت لما تهالكوا على الحياة.

ولو ذكروا الآخرة لفروا فرارا إلى جناب ربهم.

ولكن لا أحد يتوقف ليفكر.. الكل يهرول فى عجلة ليلحق بشىء وهو لا يدرى أن ما يجرى خلفه هو سراب ولا شىء وأن الدقائق والساعات والأيام تجرى.. وعمره يجرى.. وآخر المطاف مثواه التراب.. ولا أحد من الذين ذهبوا تحت التراب يعود ليحكى.. ونوافذ القبور تطل على العماء.. ولا أحد رأى شيئا.. ولا أحد يعرف شيئا.. وستار العماء مسدل أمام الكل.. لا يرى الواحد منا إلا لحظته.

وفرصة كل منا حياته ولا توجد أمامه فرصة أخرى.

والله أعطانا العقل والبصيرة وأرسل إلينا الأنبياء والرسل.. وحذرنا بالكوارث التى تتخطف الناس من حولنا كل لحظة.. ورأينا السلطان لا يدوم ورأينا النعيم يزول ورأينا الزهور تذبل والشمس تنكسف والأرض تتزلزل.. والموت يطارد كل حى.. ورأينا أنه لا بقاء لشىء.. وأحاطت بنا النذر من كل جانب فلم يعد هناك عذر لأحد.

لكن البلاء ثقيل والحجاب كثيف والأبصار كليلة وصدق الله العظيم فيما يقوله عن الأغلبية من المنافقين:

﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (يس : الآيات ٨ ـ ١٠)

إن الله لا يريد هذه الكثرة المنافقة فهى الكثرة التى سبق عليها القول بالطرد من رحمته ولذلك جعل في أعناقها الأغلال وأسدل على أبصارها غشاوة.

ونسأل الله اللطف

ماذا وراء

بوابة الموت

الإنسان .. مخير أم مسير؟

التساؤل عن حرية الإنسان تساؤل لاينتهى .

ومـــازلت أجـــد من يســـتـوقـــفنى فى الـطريق ويسألنى.. هل الإنسان مخير أم مسير ؟

والذين يـقـرأون أكـــثـــــر تســـاؤلا من الـــذين لا يقـرأون .

والقضيـة أزلية ولا ينتهى الكلام فيها ولا ينتـهى الفضول إلى كشف أسرارها لأنها مرتبطة بحقيقة الإنسان ولغز القدر .

وعمدة الحكم فى نظرى هو مايشعر به الإنسان فى أعماقه .

فتلك الشهادة التى تأتى من الأعماق هى برهان لا يعدله برهان وحجة لاتقف أمامها حجة .

والإنسان يشعر بالفعل فى أعماقه أنه يختار فى كل لحظة بين عدة بدائل وأنـه ينتقى ويرجح ويفـاضل ويوازن ويتخـير .. وهو يحاسب نفسه ويحـاسب الآخرين .. ويفـرح إذا أصاب ويندم إذا أخطأ .. وكلها شواهد على أننا نتصـرف انطلاقا من بداهة مؤكدة بأننا أحرار مسئولون .

ونحن نرى يد السجان تمـتد إلى سجينه فيضطهـده فى لقمته ويضربه ويعذبه ويعلقه من قدميه ويقهره على ما لم يرتكب ولكن هل نراه يستطيع مهما اسـتخدم من وسائل الإرهاب أن يجعل هذا السجين يحبه من قلبه قهرا ؟

لا ..

هنا تقف كل وسائل الإكراه عاجزة وسوف يظل هذا السجين حتى الموت حرا فيما يحب ويكره .. حرا فيما ينوى ويضمر .. لايستطيع أحد أن يقتحم عليه غرفة ضميره .

حتى الشيطان لا يستطيع أن يدخل قلبك إلا إذا فتحت له الباب وصادف إغراؤه هوى قلبك ولكنه لن يستطيع أن يحملك على ماتكره مهما بلغت وسائله .

وذلك شاهد آخر على أن الله أعتق القلب ، واعتق الضمير من كل وسائل الضغط والإكراه .

الاختيار إذن حقيقة .. وحرية القلب حقيقة .. وحرية النية حقيقة .

والسؤال هو عن مدى هذا الاختيار وحدوده ؟

وكيف نزداد حرية ؟

ومن هو أكثرنا حرية ؟

ثم كيف تكون هناك حرية مع مشيئة الرب ، وكيف تتفق هذه الثنائية مع عقيدتنا فى التوحيد ؟

تلك هى علامات الاستفهام .

●●●

وبرغم قهر الظروف وكثرة الضوابط والموانع التى تحد حرية الإنسان هنا وهناك . فإن الإنسان تبقى له مساحة يتحرك فيها ويختار .. وتتسع هذه المساحة كلما اتسع علمه .

وقد أجاب الغزالى عن هذا التساؤل الأزلى بكلمات فقال :

« إن الإنسان مخير فيما يعلم ، مسير فيما لايعلم .. أى أنه يزداد حرية كلما ازداد علما» .

وقد رأينا مصداق هذا الكلام فى حياتنا العصرية ، وشاهدنا

الإنسان الذى تزود بعلوم البخار والكهرباء ، والذرة يتجول فى الفضاء بالطائرات ، والأقمار ويهزم الحر والبرد ويسخر قوانين البيئة ورأينا مساحة حريته تزداد ومجال تأثيره يتضاعف .

وقرأنا فى القرآن عن الذى عنده علم من الكتاب ، وكيف نقل عرش بلقيس فى طرف عين .

وقرأنا كيف عرج محمد عليه الصلاة والسلام بمدد من الله الى السموات ، وكيف جاوز سدرة المنتهى وبلغ مقام قاب قوسين أو أدنى من ربه وذلك هو مجال الحرية الذى يزداد كلما ازداد علم صاحبه والذى يبلغ أعلى المقامات بالعلم الربانى اللدنى ، وبالمدد الإلهى الإحسانى .

فالحرية حقيقة .

والاختيار حقيقة .

والناس متفاوتون فى هذه الحرية بتفاوت علمهم ، وتفاوت مقاماتهم قربا وبعدا من الله ، لأن هذه الحرية لا تأتى إلا بالله ومن الله .

فالعلم منه والسلطان منه ، والنفخة التى نقلتنا من جمادية الطين إلى إنسانية الإنسان هى نفخته الربانية ، والتطلع إلى الحرية فطرة ضمن الفطر التى فطرها الله فينا .

وكل إنسان مفطور على اختيار الأحسن من وجهة نظره . فأما الواحد من عوام الناس فيختار نفسه ومصلحته ، وشهوته لأنه يرى بنظره القريب أن نفسه هى الأحسن بين جميع الاختيارات .

وأما العارف بالله فهو لايختار إلا الله لأنه يرى بنظره البعيد أن الله هو الأحسن بين جميع الاختيارات ، وهو باختياره لربه يخرج عن نفسه وعن اختياراتها ، ويسلم إرادته لاختيارات الله له وذلك هو منهج الطاعة .

وهو بخروجه من نفسه يخرج من المخالفة إلى الموافقة ، ومن الثنائية إلى التوحيد ، ومن المعاندة إلى الانسياب مع الله فى كافة أحواله وتقلباته .

فإذا وقع فى المعصية فإنه لايصح له أن يقول إن الله قدرها عليه : لأن الله لايختار لنا إلا شريعته ، ولا يحب لنا إلا طاعته ، وهو العارف صاحب الدعوى الذى ادعى أنه خرج من إرادته إلى إرادة ربه .. فهو إن عصى فإن معصيته تشهد على كذب دعواه وأنه مازال عند نفسه لم يبرح .

بل إن العارف الحق بخروجه من نفسه يخرج من منطقة الاختيار كلها ويدخل منطقة الإسلام .. الإسلام لله وللمشيئة الإلهية .. فهو يجتهد فى عمله لأن الله أحب له الاجتهاد ولكنه لايحزن لخسارة ولا يفرح لنجاح ولا يأسى على فشل ، لأنه فوض النتائج إلى الله وارتضى أحكامه بلا جدل

وبخروجه من منطقة الاختيار يخرج أيضا من منطقة المساءلة وترفع عنه المحاسبة فيكون ممن يوفى لهم أجرهم بغير حساب وتلك هى سنة الفرقة الناجية .. خروج من اختيار النفس إلى اختيار الرب .. وتبرؤ من الحول والطول .. وإسقاط للتدبير .

يقول الصوفى النفرى إلهاما عن ربه :

« يا عبدى ألْقِ الاختيار ، أُلْقِ المساءلة البتة » .

فأهل التفويضَ والتوكل هم أهل الجنة بالتزكية ، لأنهم أسقطوا اختيارهم وعاشوا وفق الإرادة الإلهية .

أما أهل الاختيار فهم واقفون عند نفوسهم يتخيرون بين حظوظهم ، وقد وكلوا أمرهم إلى عقولهم التى تخطىء وتصيب ..

فوضعوا أنفسهم مع أهل المساءلة فمن يختر يسأل .

ومن أسقط الاختيار وأسقط التدبير لايعود هناك مجال لمساءلته ، فمثله لاتقع فى حقه معصية ، لأنه أسقط مشيئته ضمن ما أسقط من اختيارات .

وشاهد إسقاط التدبير فى حق العارف هو كماله ، فلا يكون مع الله إلا الكُمّل .. ولايصح الادعاء بأنك مع الله وشواهد أعمالك تدل على أنك مع هواك وشهواتك ، فتلك تكون حجة الله عليك بأنك كذاب .

ولهذا لايترك الله المؤمنين العارفين الذين يدعون أنهم من أهله وخاصته ، دون أن يبتليهم ويفتنهم فتلك دعوى عريضة لايصح أن تفوت دون امتحان .

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (العنكبوت : ٢، ٣)

والعجيب أن الملحدين وأهل الفكر المادى يقولون بالجبر والحتمية ، ثم نرى جميع تصرفاتهم أبعد ماتكون عن هذا الاعتقاد وكان المفروض لو كانوا صادقين فى دعواهم بعدم جدوى الحرية الفردية ، أن يسلموا هذه الحرية لربهم المزعوم (المادية الجدلية) ولكن مايحدث دائما هو العكس ، فنرى تاريخهم تاريخا دمويا لجبابرة الحكم الفردى .. ستالين .. لينين .. منجستو .. وما منهم إلا مُدَّع يتصور أنه يصنع التاريخ .. وينسى الواحد منهم أنه قال منذ لحظات أن المادية التاريخية هى التى صنعت له وعيه وعقله وموقفه .

فإذا كانت المادية التاريخية هى التى أفرزت الفن والفكر

والدين والوعى فكيف بك يا صاحبى تعود فتدعى لنفسك أنك تصنع التاريخ وأنت أحد مصنوعات هذا التاريخ إلا أن تكون قد عدت فناقضت نفسك ، وتصورت لإرادتك علوا على التاريخ المادى بما يشفع لها أن تعود فتصنع التاريخ من جديد .

وإذا كان للإرادة الإنسانية علو على التاريخ فذلك هو سبق الفكر على المادة الذى تنكرونه فى (أ – ب) فلسفاتكم .

فها أنتم قد تصورتم أنكم وضعتم الهرم على قاعدته ، ثم عدتم فقلبتموه على سنامه .

وهؤلاء هم أهل الضلال البعيد .

أما الوجوديون والعبثيون من أهل الحياة مع الهوى واللحظة فهؤلاء يقولون إنهم اختاروا نفوسهم ، فالحياة الحقة عندهم هى أن تكون نفسك .. لاتعبأ بعرف أو تقليد أو دين أو أخلاق ، وإنما تعيش لحظتك كما تحب وتهوى ، فأنت لاتملك غير لحظتك واللحظة التى تمضى لاتعود . والحق أن كلا منهم قد اختار حيوانه ، وأطاع غريزته وأسلم لنزوته واستلهم فكرته .. فهو الآخر عبد وإن تصور أنه حر .. عبد لآلهة كثيرة تتجاذبه وتتقاسمه .. ثم أنه هو وآلهته عبيد لله دون أن يدرى .. فالكل منه وإليه .

﴿ قل كل من عند الله ﴾

والكون بنواميسه وما فيه من جمال وفن وفكر ، وحب وقوانين مادية جدلية ونظريات عبثية ووجودية وأفكار فوضوية.. هو كون مخلوق لله .. وهو مظهر من مظاهر التجلى الإلهى والمشيئة الإلهية .. فلا شىء فى الكون يخرج عن مشيئة الله ، وأن خرجت بعض الأشياء عن رضاه .

والكل مسلم لله طوعاً أو كرهاً .

وإنما كل الفارق هو فارق بين عارف وجاهل .

فالعارف أدرك الحقيقة فأسلم باختياره وخرج عن نفسه طوعاً وحبا وكرامة وانضوى تحت المشيئة بكليته راضياً سعيداً.

والجاهل تصور أنه ليس عبداً لأحد .. وأنه لا مشيئة لأحد عليه وأنه اختار نفسه (وهو ما اختار إلاحيوانه) .

والحق أنه هو الآخر عبد خاضع دون أن يدرى .. وإنما هو خاضع بالكرباج ، منساق بالعصا يتصور أنه يسير إلى الأمام ، وهو يدور فى ساقية وعلى عينيه عصابة كالثور يكدح لبطنه وشهواته .

وقد أخرجه جهله وعناده من القرب إلى البعد .

فلأهل البعد النار ولأهل القرب الجنة .

وإنما تكون الجنة مكافأة لعارف عرف .

ولا حرية إلا لعارف .

ولا حرية إلا بالله ومن الله .

ولا تأتى الحرية إلا خلعة من الله .

إنما تأتى حرية العارف من أنه اختار ربه فخلع الله عليه حريته وصفاته ، فأصبح العبد الربانى الذى يرى ببصر الله ويسمع . بسمع الله ويحيا بحياته : وتلك هى الحرية القصوى التى يحرك بها العارف الجبال ، والتى أسرى بها محمد عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى وعرج إلى السماوات وجاوز المنتهى .. والتى أحيا بها عيسى الميت .

أما التحرر بمعنى التمرد على الشرائع ، وعصيان الأمر الإلهى واستباحة الأعراف الخلقية فهو مثل السباحة ضد التيار ، نهايتها الإنهاك والتعب ثم الغرق .

وكيف يكون الإضـراب عن الطعام والشـراب والتنفس حرية ، وهل تكون إلا حرية الموت أو حرية القـضاء علي الحرية . وكيف يكون اتبـاع الشـهوات حـرية ، والشـهـوات ذاتها عـبودية وقـيد ؟ وكيف تزداد حرية بدخولك فى جاكتة جبس وخضوعك لحيوانك؟ إنما التحرر لا يكون إلا خروجا مـن النفس وضروراتها واستعلاء علي هواها وشـهواتها .

والعارف الذى خرج من نفسه واخـتار ربه هو بالمعني العميق قد اختـار حقيقـته ، فهو ما خـرج إلا عن نفسه الحيـوانية الأمارة وتلك نفس دونية طينية حكمها حكم الجسد .

أما حقيقة كل إنسان فهى نفسه العلوية الملكوتية التى هى على مثال النفخة الربانية التي أودعها الله في الجسم .

وهي المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم في المبدأ الأول .

والعارف باخـتياره لربه قـد اختار نـفسه الحـقيقـية « النفس المثال التي خلقها الله في أحسن تقويم » .

﴿ لقـد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسـفل سافلين ﴾ (التين : الآيتان ٤ ـ ٥)

ولقـد ردنا الله إلى أسـفل سـافلين حـينمـات أودع هذه النفس العلية في الحشـوة الطينية ، وابتلاها بالشـهوات والحـيوانية وتلك هي حيـاتنا الدون التي نحيـاها ، ولكن العارف بخـروجه من هذه النفس الحيوانية يسترد شفافيـته الأولى ، ويعيش نفسه الحقيقية ويكتشف نسبه الروحانى باعتباره نفخة من الله ، وهو بهذا يختار أصله وحقيقته ، يختار ربه .

إنه إذن أعلى درجات الاختيـار وإن كان فى الظاهر خروجا من الاختيار وإسقاطا للتدبير .

وحرية العبد بهذه الصورة لا تتنافى مع التوحيد فما أخذ العبد حريته إلا من الله ، وما جاءت حريته فى أن يشاء إلا بمشيئة إلهية ودستور إلهى .. فقد أرادنا الله أحرارا .. ولم نغتصب نحن هذه الحرية من الله اختلاساً .

﴿ وماتشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ (الإنسان : الآية ٣٠)

ثم إن الله حينما قضى علينا قضاءه المسجل فى كتابه ، فإنما قضى على كل إنسان قضاء من جنس قلبه ، ومن جنس ضميره ، ومن جنس نيته .. من أراد حرث الدنيا مهد له فيها ، ومن أراد حرث الآخرة هداه إليها .

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ﴾ (الشورى : الآية ٢٠)

﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم﴾ (الأنفال : الآية ٧٠)

﴿ فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ (الليل: الآيات ٥ ـ ١٠)

﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾(البقرة :الآية ١٠)

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ (محمد : الآية ١٧)

تأتى التيسيرات دائما من جنس النية .. فلا ثنائية ولا تضاد بين اختيار الرب واختيار العبد .. وإنما الإرادتان تلتقيان فى خط واحد وإرادة واحدة .. الله يسيرك إلى عين اختيارك ويختار لك من جنس نيتك لا تناقض ولا ضدية .

ومراد الله بهذا أن يُخرج المكتوم فى القلب .

﴿ والله مُخرج ماكنتم تكتمون ﴾ (البقرة : الآية ٧٢)

ليتم الغرض من الدنيا كدار ابتلاء وامتحان .

ويظل الله هو الحاكم الأحد بلا شبهة شريك .. فلا حرية إلا به، ولا تيسير ولا تمكين إلا بإذنه .

أما خارجاً عن الله .. فلا حرية ولا حياة ولا قدرة .

فما سوى الله نار ..

وما سوى الله ظلمة ..

وما سوى الله قيد ..

وسبحان الذى أسرى بعبده ..

فلا سريان لنا إلا على جناحه .. ولا نفاذ من أقطار السماوات والأرض إلا بسلطانه ..

ولا حرية إلا به .

ولا نور إلا بنوره ..

وهذا الاعتراف هو عين الإسلام ..

وهو عين شهادة أن لا إله إلا الله .. أى لا حاكمية ولا سلطان إلا له .. تقدست أعتابه عن الند والضد ، والصاحبة والولد والشريك والشبيه .

ماذا وراء بوابة الموت

٤

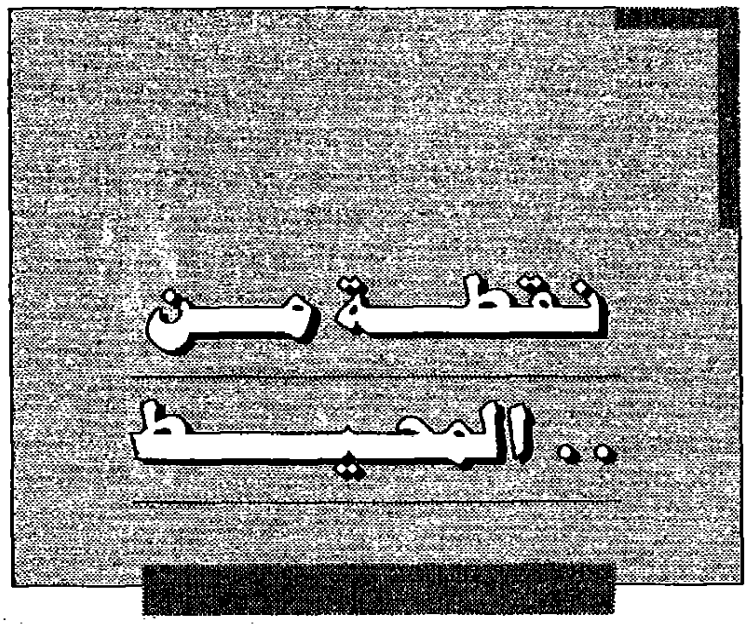

فى ساعات الصفاء حينما تنقشع الغواشى عن القلب وتنجلى البصيرة ، وأرى كل شىء أمامى بوضوح ، تبدو لى الدنيا بحجمها الحقيقى وبقيمتها الحقيقية فإذا هى مجرد رسم كروكى أو ديكور مؤقت من ورق الكرتون أو بروفة توزع فيها الأدوار لاختيار قدرات الممثلين ، أو مجرد ضرب مثال لتقريب معنى بعيد ومجرد وهى فى جميع الأحوال مجرد عبور ومزار ومنظر من شباك فى قطار .

وهى الغربة وليست الوطن .

وهى السفر وليست المقر .

أعجب تماما وأدهش من ناس يجمعون ويكنزون ويبنون ويرفعون البناء وينفقون على أبهة السكن ورفاهية المقام وكأنما هو مقام أبدى وأقول لنفسى أنسوا أنهم فى مرور ؟ ألم يذكر أحدهم أنه حمل نعش أبيه وغدا يحمل ابنه نعشه إلى حفرة يستوى فيها الكل ؟ وهل يحتاج المسافر لأكثر من سرير سفرى وهل يحتاج الجوال لأكثر من خيمة متنقلة ؟

ولم هذه الأبهة الفارغة ؟ ولمن ؟ ولمن الترف ونحن عنه راحلون؟ هل نحن أغبياء إلى هذه الدرجة ؟ أم هى غواشى الغرور والغفلة والطمع وعمى الشهوات وسعار الرغبات وسباق الأوهام ؟ وكل ما نفوز به فى هذه الدنيا وهم ، وكل ما نمسك به ينفلت مع الريح .

والذين يتقاتلون ليسبق الواحد منهم الآخر أكثر عمى فالشارع سد عند نهايته وكل العربات تتحطم ويستوى فيها السابق باللاحق ، ولا يكسب أحد منهم إلا وزر قتل أخيه . بل إن أكثر الناس أحمالا وأوزارا فى هذه الدنيا هم الأكثر كنوزا والأكثر ثراء فكم ظلموا أنفسهم ليجمعوا وكم ظلموا غيرهم ليرتفعوا على أكتافهم .

ولعلنا سمعنا مثل هذا الكلام ونحن نلهث متسابقين على الطريق فهو كلام قديم قدم التاريخ رددته جميع الأسفار وقاله جميع الحكماء ولكننا لم نلق له بالا ولم يتجاوز شحمة الأذن .

ومازلنا نسمع ولا نسمع برغم تطور أدوات الاستماع وكثرة الميكروفونات ومكبرات الصوت ، ولقطات الهمس الالكترونية من فوق الفضاء ومن تحت الثرى .

ومازلنا نزداد صمما عن إدراك هذه الحقيقة البسيطة الواضحة وكأنها طلسم مطلسم ولغز عصى على الأفهام .

هل نحن مخدرون ؟

أم هناك ما هو أقوى أثرا وأكثر شراسة من الخمور والمخدرات ، هى مادية العصر التى طبعت الناس بذلك الشعار المسكر ؟ شعار غامر واكسب وانهب واهرب وسارع إلى اللذة قبل أن تفوت وعش لحظتك بملئها طولا وعرضا ولا تفكر ماذا بعد فقد لا يكون هناك بعد .

نعم تلك هى الخدعة التى يستدرج إليها الكل أنه لا شىء بعد وهى ليست خدعة بل هى روح الفلسفة المادية ويقينها أنه لا شىء سوى ما نرى ونسمع ونذوق ونلمس من ماديات ، وأنه ليس وراء هذه الدنيا شىء ونفوسنا الأمارة استراحت إلى هذه

الفلسفة لأنها تشبع لها رغائبها وتحقق لها مشتهياتها ، والحيوان فى داخلنا اختارها لأنها تشبع غرائزه .

ألم يدع الصوفى الكامل أبو الحسن الشاذلى ربه متوسلا أن يأخذه من هذه النفس فقال : « رب خذنى إليك منى وارزقنى الفناء عنى ، ولا تجعلنى مفتونا بنفسى محجوبا بحسى» وتلك النفس هى الفتنة والحجاب وهى التى أفرزت هذه الحضارة المادية وروجتها.

ألم يسأل داود ربه : « يارب كيف أصل إليك . فقال له ربه أترك نفسك وتعال » . أن يترك هذه النفس لأنها العقبة : ﴿ **فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة** ﴾

(البلد : الآيات ١١ ـ ١٣)

لا انفكاك من هذه العقبة إلا بالانفكاك من طمعك . فتفك الرقبة وتطعم المسكين وتؤثر غيرك على نفسك ، ولذلك لم يطلب الإسلام من المسلم نبذ الدنيا وإنما طلب منه قمع النفس وكبحها وشكمها لأن النفس هى الأصل والدنيا مجرد أداة لتلك النفس لتختال وتزهو وتتلذذ وتستمتع .

إن النفس هى الموضوع وهى ميدان المعركة ومحل الابتلاء والدنيا ورقة امتحانها ومطلوب الدين هو الارتقاء بهذه النفس والارتفاع بها من شهوات البطن والفرج ومن شهوات الجمع والاكتناز ، ومن حمى الاستعراض والكبر والتفاخر ليكون لها معشوق أرقى هو القيم والكمالات ، ومعبود واحد هو جامع هذه الكمالات كلها .

وإنما تدور المعركة فى داخل النفس وفى شارع الدنيا حيث يتفاضل الناس بمواقفهم من الغوايات والمغريات وما تعرض

عليهم شياطينهم من خواطر السوء ومن فرص اللذة كل لحظة .

ولم يطلب الإسلام من المسلم أن ينبذ الدنيا ، بل طلب منه أن يخوضها مسلحا بهذه المعرفة فالدنيا هى مزرعته وهى مجلة أفعاله وصحيفة أعماله .

وقدم له فلسفة أخرى فى مواجهة الفلسفة المادية قدم له فلسفة استمرار وبقاء فهو لن يموت ويمضى إلى عدم بل إلى حياة أخرى سوف تتعدد فصولا وتمضى به كدحا وجهادا حتى يلقى ربه : ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه**﴾ (الانشقاق : الآية ٦) .

الحضارة المادية لم تقدم للإنسان إلا الموت وحياة تمضى سدى وتنتهى عبثا أما الإسلام فقدم للإنسان الخلود وحياة تمضى لحكمة وتنتقل من طور إلى طور وفقا لنواميس ثابتة من العدل الإلهى حيث لا يذهب أى عمل سدى ولو كان مثقال ذرة من خير أو شر .. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

واليوم تصل الحضارة المادية إلى ذروة من القوة والعلم وتكتمل لها أدوات الفعل والتأثير من إذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح وكتب ومجلات وهى سواء كانت أمريكية أو سوفيتية فهى لا تفتأ تغتال العقل والروح وتتحالف على الإنسان بخيلها ورجلها ولكنها برغم كل شىء ضعيفة متهافتة واهية لأنها تغتال نفسها ضمن ما تغتال وتأكل كيانها ، وسوف تقتتل مع بعضها البعض وتتحارب بالمخلب والناب وبالقنابل الذرية والقذائف النووية فالطمع والجشع حياتها وموتها .

وعلى رقعة صغيرة من الأرض يقف الإسلام كمنارة فى بحر

لجى مظلم متلاطم الموج يعج بالبوارج والغواصات وحاملات الصواريخ وحاملات الرؤوس النووية .

وما أكثر المسلمين ممن هم فى البطاقة مسلمون ولكنهم فى الحقيقة ماديون اغتالتهم الحضارة المادية بأفكارها وسكنتهم حتى الأحشاء والنخاع فهم يقتل بعضهم البعض ويعيشون لليوم واللحظة ويجمعون ويكنزون ويتفاخرون ولا يرون من الغد أبعد من لذة ساعة ، ويتكلمون بلغة سوفيتية أو لغة أمريكية ولا يعرفون لهم هوية .

وقد نجد من يصلى منهم إلى القبلة خمس مرات فى اليوم ولكن حقيقة قبلته هى فاترينة البضائع الاستهلاكية .

ولا يبقى بعد ذلك إلا قليل أو أقل القليل ممن عرف ربه . ولو بقى مؤمن واحد مرابط على الحق فى الستة آلاف مليون فهو وحده أمة ترجحهم جميعا عند الله يوم تنكشف الحقائق وينهدم مسرح العرائس ويتمزق ديكور الخيش والخرق الملونة وتنهار علب الكرتون التى ظنناها ناطحات سحاب وتنتهى الدنيا .

وحينئذ وعندما تهتك الأستار وتقام الموازين سوف نعرف ما الدنيا وماذا تساوى وماذا يساوى كل الزمن حينما نضع أقدامنا فى الأبد .

وحينئذ سوف نتذكر الدنيا كما نتذكر رسما كروكيا أو مسرح خيال الظل أو نموذج مثال مصنوع من الصلصال لتقريب معنى بعيد بعيد ومجرد .

وسوف نعلم أنها ما كانت سوى النقطة التى فيها كل أملاح البحر المحيط ولكنها لم تكن أبدا البحر المحيط .

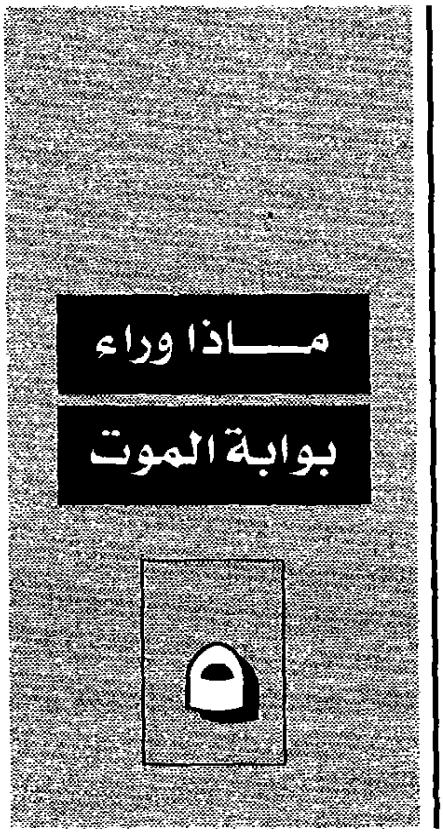
مـــاذا وراء
بوابة الموت
٥

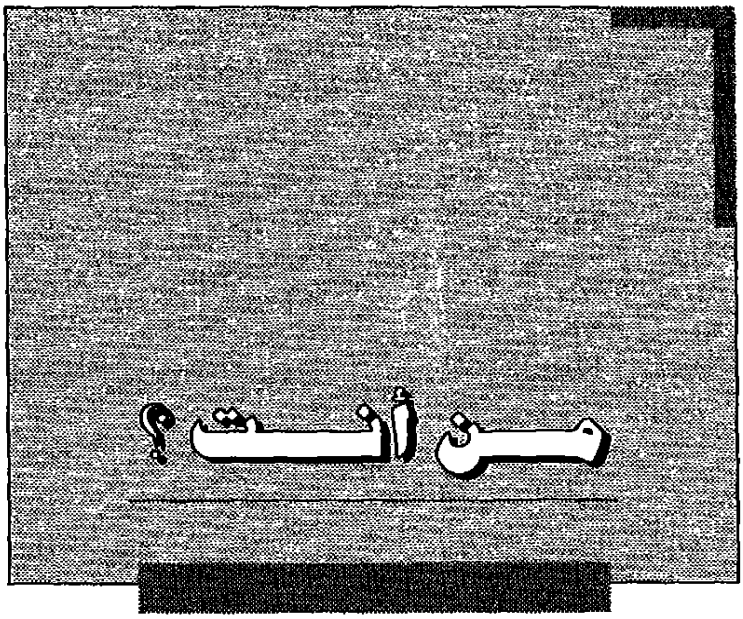
مـــن أنـــت؟

من أنت .. حينما تتردد لحظة بين الخير والشر .. من تكون ..؟!
أتكون الإنسان الخير أم ، الشرير أم ما بينهما..؟!
أم تكون مجرد احتمال للفعل الذى لم يحدث بعد..؟!

إن النفس لا تظهر منزلتها ولا تبدو حقيقتها إلا لحظة أن تستقر على اختيار ، وتمضى فيه باقتناع وعمد وإصرار ، وتتمادى فيه وتخلد إليه وتستريح وتجد ذاتها .

ولهذا لا تؤخذ على الإنسان أفعال الطفولة ، أو أفعال المراهقة ولا ما يفعله الإنسان عن مرض أو عن جنون أو عن إكراه .. وإنما تبدأ النفس تكون محل محاسبة منذ رشدها ، لأن بلوغ الرشد يبدأ معه ظهور المرتكزات والمحاور التى ستنمو عليها الشخصية الثابتة .

واختيارات الإنسان فى خواتيم حياته هى أكثر ما يدل عليه ، لأنه مع بلوغ الإنسان مرحلة الخواتيم يكون قد تم ترشح وتبلور جميع عناصر شخصيته ، وتكون قد انتهت ذبذبتها إلى استقرار وتكون بوصلة الإرادة قد أشارت إلى الطابع السائد لهذه الشخصية .

ولهذا يقول الصوفيون : «العبرة بالخواتيم» .. وما يموت عليه العبد من أحوال ، وأعمال وما يشغله فى أيامه الأخيرة هو

ما سوف يبعث عليه .. تماما كما ينام النائم فيحلم بما استقر فى باله من شواغل لحظة أن رقد لينام .

ولهذا أيضا لا تؤخذ النفس بما فعلته وندمت عليه ورجعت ، ولا تؤخذ بما تورطت فيه ثم أنكرته واستنكرته ، فإن الرجوع عن الفعل ينفى عن الفعل أصالته وجوهريته ويدرجه مع العوارض العارضة التى لاثبات لها .

وقد أعطى الله الإنسان مساحة كبيرة هائلة من المنازل والمراتب .. يختار منها علوا وسفلا ما يشاء .. أعطاه معراجا عجيبا يتحرك فيه صاعدا هابطا بلا حدود .. ففى الطرف الصاعد من هذا المعراج تلطف وترق الطبائع ، وتصفو المشارب والأخلاق حتى تضاهى الأخلاق الإلهية فى طرفها الأعلى (وذلك هو الجانب الروحى من تكوينه) وفى الطرف الهابط تكثف وتغلظ الرغبات والشهوات ، وتتدنى الغرائز حتى تضاهى الحيوان فى بهيميته ، ثم الجماد (فى جموده وآليته وقصوره الذاتى) .. ثم الشيطان (فى ظلمته وسلبيته) وذلك هو الجانب الجسدى الطينى من التكوين الإنسانى .

وبين معراج الروح صعودا ومنازل الجسد والطين هبوطا ، تتذبذب النفس منذ ولادتها ، فتتسامى هنا وتتردى هناك بين أفعال السمو وأفعال الانحطاط ، ثم تستقر على شاكلتها وحقيقتها.

﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ (الإسراء : الآية ٨٤)

ومتى يبلغ الإنسان هذه المشاكلة والمضاهاة بين حقيقته وفعله فإنه يستقر ويتمادى ، ويمضى فى اقتناع وإصرار على خيره أو شره حتى يبلغ نهاية أجله .

ومعـنى هذا أن النفس الإنسانيـة أو « الأنا » .. هى شـىء غـير الجسد .. وهى ليـست شيئا مـعلوما بل هى سر وحقيـقة مكنونة لا يجلوها إلا الابتلاء والاختبار بالمغريات .

وما الجـسد والروح إلا الكون الفـسيح الذى تتـحرك فـيه تلك النفس علوا ، وهبوطـا بحثا عن المنزلة التى تشـاكلها وتضاهيـها والبرج الذى يناسب سكناها فتـسكنه .. فمنا من يسكن برج النار (الشـهـوات) وهو ما زال في الـدنيا ، فلا يـبرح هذا البـرج حتى الممـات ، فتلك هى النفس التى تشاكل الـنار فى سرها وهى التى سبق عليها القول والعلم بأنها من أهل النار .

وذلك علم سـابق عـن النفوس لا يتاح إلا لله وحـده ، لأنه وحده الذى يعلم السر وأخـفى ، فهو بحكـم علمه التام المـحيط يعلم أن هذه الحقيقة المكنونة فى الغـيب التى اسمها فلان ، والتى مازالت سرا مستترا لم يكشفه الابتلاء والاختبار بعد ، والتى لم تولد بعد ولم تنزل فى الأرحـام .. يعلم ربنا تبارك وتعـالى بعلمه المـحكم المـحيط أن تلك النـفس لن تقر ولن تسـتـريح ولن تختـار إلا كل ما هو نارى شـهوانى سلبى عـدمى .. يعلم عنها ذلك وهى مازالت حقيقة مكنونة لا حيلة لها فى العدم .

وهذا العلم الربانـى ليس علم إلزام ولا علم قـهـر ، بل هو علم حصر وإحاطة ، فالله بهذا العلم لا يجبر نفسا على شر ، ولا ينهى نفسـا عن خير ، فـهو يعلم حـقائق هذه الأنفس على مـا هى عليه دون تدخل .

فـإذا جاء مـيـقـات الخلق (وجـمـيـع الأنفس تطلب من الله أن يخلقهـا ويرحمهـا بإيجادها وهى مازالت حـقائق سالبـة فى عالم الإمكان فى العـدم) أعطى الله تلك النفس اليد ، والقـدم واللسان

لتـضـــر وتنفع وأعطاها ذلك الكون الـفسـيح الذى اسـمـه الروح والجسد لتـمرح فيه صـاعدة هابطة تختار من منازله مـا يشاكلها لتسكن فيه .. فإذا سكنت واستقرت ، وتسجلت أعمالها قبضها الله إليـه إلى يوم البـعث والحـساب المـعلوم .. حـيث تقـرأ كل نفس كتابها.. وتعلم منزلتها فلا يعود لأحد العذر فى أن يحتج بعد ذلك حينما يضعه الله فى مستقر الجنة أو مستقر النار الأبدية .

وقـد أعـذر الله وأنذر الجـميع ، مـن قبل ذلـك بالرسل والكتب والآيات وأقـام عليـهم الحجـة بمـا وهب لهم من عـقل وضـمـيـر وبصيرة، وحواس تميز الضار من النافع والخبيث من الطيب .

ولهذا حينما تطالب النفوس المجرمة فى النار أن تعطى فرصة أخـرى ، وأن ترد إلى الدنيا لتـعمل الـصالحـات ، وحينمـا يدعى البعض أن تعذيب تلك النفوس أبديا على ذنوب مؤقتة ارتكبتها فى الزمن المحدود هو أمر ظالم .

حينئذ يجيب ربنا متحدثا عن هؤلاء المجرمين قائلا :

﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾

(الأنعام : الآية ٢٨)

وفى هذا الرد البليغ إشارة إلـى أن إجرام تلك الأنفس لم يكن ذنبـا موقـوتا فى الزمن .. بل إنهم ليـعاودون هذا الجـرم فى كل زمن ومهمـا عاود الله خلقهم .. لأن ذلك الإجرام حقـيقة مكنونة ، وليس عرضا محدودا بالزمـان والمكان .. ولهذا كان عقابه الأبد ، وليس العذاب الموقوت .

ونقول أيضا : إن هناك عـدالة عميقة كامنة فى هذا المـصير .. نارا أبدية أم جنة .. إن كل نفس بينها وبين ذلك المـصير النهائى مشاكلة تامة ، ومضاهاة وائتلاف فى الحقائق .. فالحقائق النارية

تسكن النار والحقائق النورانية تسكن الجنة .. فلا قسوة هناك ولا وحشية ، إنما وضع كل شيء في مكانه .

والسر الآخر الذى ينكشف لنا أن البيئة لا يمكن أن تصنع من إنسان صالح (نفسه صالحة بالحقيقة) إنسانا مجرما ولا العكس، وأن الكلام على أن مظالم المجتمع جعلت فلانا لصا ، هذا الكلام لا يصدق دينيا ولا واقعيا . فالمجتمع يضع للجريمة إطارها فقط ولكن لا ينشيء جريمة فى إنسان غير مجرم .. بمعنى أن لص هذا الزمان تعطيه امكانات العصر العلمية وسائل الكترونية وأشعة ليزر ليفتح بها الخزائن ، بينما نفس اللص منذ عشرين سنة لم يكن يجد إلا طفاشة .. كما أن قاتل اليوم يمكن أن يستخدم بندقية مزودة بتلسكوب (كما فعل قاتل كنيدى) بينما هو فى أيام قريش لا يجد إلا سيفا ، ثم قبل ذلك بعدة قرون لا يجد إلا عصا، ثم قبل ذلك على أيام قابيل وهابيل لا يجد إلا الحجارة .

إن المجتمع والعصر والظروف تصنع للجريمة شكلها ، ولكنها لا تنشيء مجرما من عدم ، ولا تصنع إنسانا صالحا من نفس لاصلاح فيها .

وبالمثل لا يستطيع الأبوان بحسن تربيتهما أن يقلبا الحقائق فيخلقا من ابنهما المجرم ابنا صالحا ولا العكس .

ونجد فى سورة الكهف حكاية عن غلام مجرم كافر ، أبواه مؤمنان :

﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ (الكهف : الآية ٨٠)

وبعض الأنبياء كانوا من آباء كفرة ، واستجابت أكثر الأقوام لهؤلاء الأنبياء ولم يستجب الآباء .

من الذى يســتطيع أن يقلب حقـائق الأنفس ويغيـرها ؟ لا أحد سوى الله وحده .

والله لا يفعل ذلك إلا إذا طلبت النفـس ذاتها أن تتغيـر وابتهلت من أجل ذلك ، لأنه واثقنا جـمـيعـا على الحـرية التامـة وعلى أنه لا إكراه فى الدين .. وأن من شـاء أن يكفر فليكفـر ، ومن شاء أن يؤمن فليـؤمن .. وأنه لن يقهـر نفســا على غيـر هواها .. وأنه لن يغير من نفس إلا إذا بادرت بالتغيير وطلبت التغير :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

(الرعد : الآية ١١)

وتلك هى التزكية :

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمتـه مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ (النور . الآية ٢١)

وعلى الإنسان أن يبدأ بتزكية نفسه وتطهيرها :

﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾

(الشمس : الآيتان ٩ : ١٠)

﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ (فاطر : الآية ١٨)

ولا سبيل إلى تطهير النفس وتزكيتها إلا بإتقان العبادة والتزام الطاعات ، وإطالة السجود وفعل الصالحات .

وبحكم رتبة العبودية يصبح الإنسان مستحقا للمدد من ربه .

فيمده الله بنوره ويهيىء له أسباب الخروج من ظلمته .

وذلك هو سلوك الطريق عند الصوفية بـالتخلية (تخلية النفس من الصـفـات المـذمـومـة) ثم التـحلية (تحـليـة القلب بالذكـر والفضائل) والتعلق والتخلق والتحقق .

والتعلق عندهم هو التعلق بالله وترك التـعلق بما سواه والتخلق

هو محاولـة التحلى بأسمائه الحسنى ، الرحيم والكريم والودود والرؤوف والحليم والصبور والشكور .. قولا وفعلا .

والتحقق هو أن تصل إلى أقصى درجات الصفاء واللطف والمشاكلة ، فتصبح ربانيا فى طباعك أو تكاد .

ولا سبيل إلى صعود هذا المعراج إلا بالعبادة والطاعة والعمل الصالح ، والتزام المنهج القرآنى والسلوك على قدم محمد العبد الكامل ، والعارف الكامل عليه صلوات الله وسلامه .

والذى يعلق على هذا الكلام فيقول :

قولك عن النفس إنها « السر » هو كلام أغمضت فيه ، وألغزت وحجبت وما كشفت .

أقول له إن نفسا فيها القابلية للحركة على جميع تلك المعارج صعودا ، وهبوطا ، وفيها القابلية أن تكون ربانية أو شيطانية أو حيوانية أو جمادية .

نفس بهذه الامكانات هى « السر الأعظم » ذاته ، ومن ادعى أنه أدرك السر الأعظم ؟!!

إن هى إلا أصابع تشير .

والمشار إليه لا يعلمه إلا الله .

ونحن جميعا لا نعلم .

مـــاذا وراء
بوابة الموت
٦

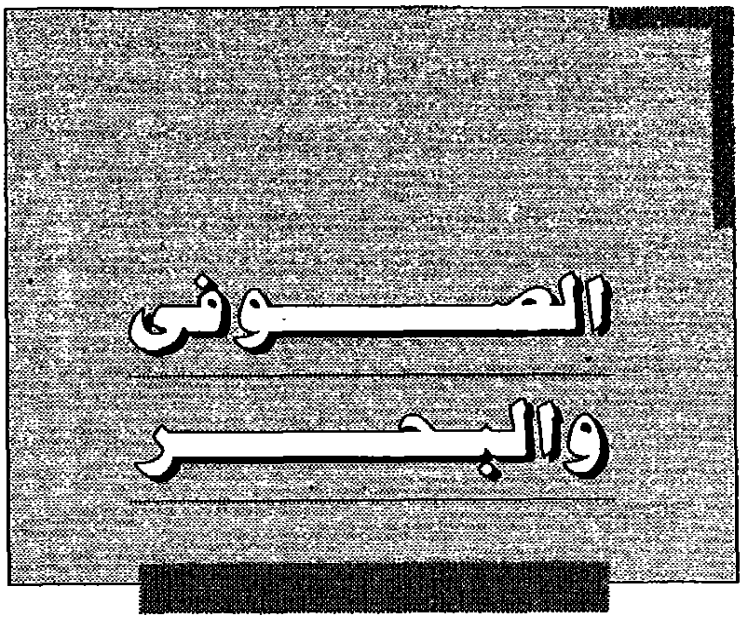
الصـــوفى
والبحـــر

مد الرجل ساقيه فى استرخاء لذيذ، ونظر إلى البحر المديد الأزرق كأنه يشربه ويشرب لونه. وترك روحه ترضع من هذه الشفافية اللؤلؤية والأنوار المتشععة الذائبة فى المياه.

شىء ما فى ذلك البحر كان يبدو لعينيه. وكأنه من وراء العقل ومن وراء الحس.. شىء كالغيب، يسطع خلال المظاهر.

وتذكر كلمات ذلك الصوفى الذى قال إنه اشتاق إلى ربه، وإنه احترق إليه شوقا، وكاد عقله يهلك عجزا عن بلوغه لولا أن نور الله كان يلوح له من وراء أستار الغيب، ومن خلال الجمال المتجلى فى الوجود فيروى ظمأه بين الحين والحين.

وذلك هو الشرب والسكر الذى يحكى عنه الصوفية.

شرب الجمال المتجلى فى الوجود.

ذلك الشرب المغيب الذى يترك الروح نشوانة.. هيمانة.. تهتف: الله.. الله.

وقد أدرك صاحبنا فى جلسته أمام البحر لأول مرة ذلك المعنى البعيد الذى حكى عنه.. الصوفية.. وشعر بذلك الشرب المغيب.. وهتفت روحه النشوانة، وقد أدركت طرفا من تلك الحضرة الإلهية المتجلية فى الأشياء.. هتفت هيمانة سكرانة.. الله.

لقد اتصلت روحه لأول مرة بنبع الحسن، ومصدر الفتنة وسر

الجلال والجمال فى الأشياء.. وباشر تلك الرجفة الكهربائية وأحس بتلك الرعشة الروحية وهو يلامس السر السارى فى الوجود وفى نفسه.

وذلك هو حضور المحبوبة المعشوقة التى كان يسأل عنها المحب الهيمان طوال الوقت، ويبحث عنها ويرتحل إليها وهى طوال الوقت معه دون أن يدرى.. فى سواد عينيه.. وفى حنايا ضلوعه.. وأقرب إليه من حبل الوريد..

ومن عجب أنى أحن إليهمو
وأسأل عنهم من أرى وهمو معى
وترصدهم عينى وهم فى سوادها
ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

فما كان الحسن والجمال والفتنة التى لمح طرفا منها فى الشفاه والخدود والقدود إلا مددا من ذلك الغيب المغيب، ولا كان إلا تجليا لذات الحسن المتفردة.. «الذات الإلهية» التى هى أقرب إليه من نفسه وأقرب إلى عينيه من سوادهما، وأقرب إلى لسانه من نطقه.

إن ليلاه فيه .. وهو يقطع البوادى بحثا عنها. «وذات الحسن المتفرد» التى أفاضت من حسنها البديع على كل شىء.. أقرب إليه من حبل وريده، وأوثق اتصالا به من دمه فى شرايينه.

وحينما يدرك الصوفى ذلك يصيبه برد السلام، ويهدأ فى جوانحه طائر القلب، وتنشر عليه السكينة لواءها، ويصبح صاحب الوجه النورانى، والنفس المطمئنة التى لا تزلزلها الزلازل ولا تحركها النوازل.

شعر صاحبنا بتلك الأنوار وهو جالس أمام البحر، وأمامه

قطف من عنب مثلج.. ورأى كل حبة عنب وكأنها تختزن داخلها نورا.. وحينما ذابت فى فمه بردا وحلاوة شعر كأنما تعطيه سرها وتبوح له بمكنونهـا.. وكان فى تذوقه لحلاوتها شيء كـالعبادة.. وكأنما كان ربه هو الذى يطعمه ويسـقيه مباشرة، وبدون وساطة ويناوله من كفه الرحمانية ليأكل ويشرب..

وتذكر قول عميد العشاق الإلهيين ابن الفارض

شـــربنا على ذكـــر الحبيب مدامـــة

سـكرنا بهـا من قبل أن يخلق الكرم

فوصف الشاعر خمرا للكرم من قبل أن يخلق الكرم. وتلك هى خمر السـر المودع فى الأشياء من قبل أن تـخلق الأشياء تلك هى خمر ﴿فإذا نفخت فـيه من روحى فقعـوا له ساجدين﴾.. خمر الأنوار المودعة فى الأشياء. وكل مؤمن مازال يعاود السجود مثل المـلائكة كلما اسـتشـعر هذه الأنوار.. وكلمـا باشر سـرها وذاق حلاوتها سجدت جوارحه وهتفت نفسه.. الله.. الله..

وشوش له البـحر بهذه الكلمـات، وكاشفـه بتلك الأسرار وهو يهدهده بأمـواجه، ويتناثر كـحبـات الماس على وجهـه وساقـيه. وبقدر ما كانت صفحة البـحر تبدو له هادئة ساكنة مطمئنة.. كان باطن البـحـر يقـول له.. باطـنى وسع العـالمـين.. وسع الحـيـاة والموت.. وسع كل شيء علما.

كان البـحر أشـبه بالرمـز المهـموس، والإشارة الدالة والـمثل المضروب على القدرة:

﴿ مثل نوره كـمشكاة فيهـا مصبـاح المصباح فى زجـاجة الزجاجة كـانها كوكب درى يوقـد من شجرة مباركـة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتـها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ (النور: الآية ٥)

ذلك هو الضوء فى المصباح واللؤلؤة فى الصدفة، والروح فى الإنسـان، والجمـال فى البـحر، وتلك هى النـفخـة التى تدل على النافخ ﴿ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ﴾.

فالـزيت يسرى فـيهـا من الذات المبـاركة التى تضىء بذاتـها بدون حـاجـة إلى نار تشـعلهـا.. الـذات التى نورها مـصـدر كل الأنوار.. وتلك هى الشجرة المباركة المنزهة عن الجهات.. فلا هى شرقـية ولا هى غـربية.. فـهى فوق المكان والزمـان ومنزهة عن الأسباب فهى تضىء بلا نار.. تلك هى الذات الإلهية المتعالية على الصور.. ومع ذلك تتجلى فى كل الصور

﴿ هو الظاهر والباطن ﴾

ظاهر فى البحر والشمس والنجوم، وفى وجوه الحسان ولكنه غيرها جميعا.

هو الظاهر سبحانه، ولكنه ليس المظاهر.

وتلك هى الفتنة التى يقع فيها المؤمن والكافر.

تقول لـه المظاهر الجمـيلة وهى تدعوه إلى نفـسهـا بجمـالها ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾.

فإذا افتتن بها ووقع فى أسر جـمالها وعبدها، وقع فى الشرك الخفى وهلك.

وذلك هو حال الأغلبية والكثرة من عشاق المظاهر وعباد المال والجاه والنساء.

وإذا أدرك أن فتنتـها ليـست منها ولكن من الله المتـجلى فيـها وأنها كالمصابيح فى زجاجـات، ولكنها مصابيح لا تضىء بذاتها، وإنما بمدد وأسلاك من شجـرة مباركة هى التى تأتى منها الإنارة لكل المـصابيح.. إذا أدرك ذلك تجـاوز بعبـادته كل المظاهر وكل

المصابيح المنيرة، وتوجه إلى الله الذى ينيرها كلها بنوره.. وخرج من زحام الكثرة إلى صفاء الوحـدة.. واختص الله وحده بالعبادة.. وإذا فعل ذلك نجا. وذلك حال القلة من العارفين. وهذا سر الدنيا.. ولهذا خلقـها الله.. لتمتـحن بإغرائها معـادن النفوس، ويتميـز بها العارف من الجـاهل.. وتتميـز بها المـراتب والمنازل والدرجات.. ويعرف بها أهل الصدق صدقـهم، وأهل الكذب كذبهم حينما تنشر الأعـمال، وتهـتك الأسـرار فى يوم الحـشر ويوم الـتغـابن الذى لا ينفع فيه ادعـاء الأدعياء.. يوم يشعر كل إنسان أنه غـبن نفسه حينمـا تعجل لذة تافهة وزائلة لا تسـاوى شيئا وحرم نـفسه من ميراث جنة لا تنفد لذائذها ووشوش له البحر.. وهمس الموج وتناثر كالماس على وجهه وقدميه.

واتصل السر بالسر.

ومضى الحوار.

ماذا وراء بوابة الموت

٧

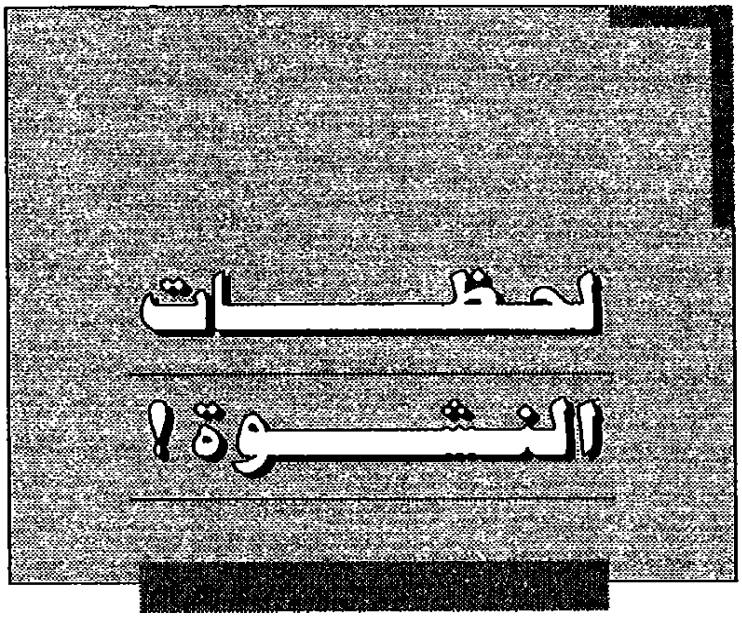

لا أظننى وحدى الذى عشت تلك اللحظات وباشرت ذلك الشعور .. ذلك الإحساس المؤنس قد عاشه كل منا حينما بلغ شاطىء البحر وألقى بكل همومه خلفه وطرح الدنيا وراءه وألقى بنظرة شوق عانقت المياه اللازوردية وغرقت فى لا نهائية الأفق واستسلمت لتلك المعية المبهمة وذلك الحضور الغيبى .. ذلك العناق الجميل مع المطلق .. فأنا وحدى ولست وحدى .. فمن وراء الزرقة اللازوردية ومن خلف همهمة الموج ومن وراء هذا الإطار البديع واللوحة المرسومة بإعجاز هناك يد الخالق المبدعة لكل هذا .. هناك ذات الرسام انشقت عنها الحجب واستشفها الوجدان واستشرفتها البصيرة .

فكأنما يدور الخطاب بين ذات الرب وذات العبد .. وكأنما يقولى ربى :

ليس بينى وبينك بين .. ليس بينى وبينك أنت .

هذا أنا وأينما توليت فليس ثمة إلا وجهى كل شىء لى ، فكيف تنازعنى مالى ، كل شىء لى وأنا لا شريك لى .

حتى « الأنا » وأنت تدعوها لنفسك .. هى لك نفحة منى أعطيها متى أشاء وأستردها متى أشاء

هى لحظة فريدة من لحظات التجرد الكامل يشعر به أصحاب القلوب فى مجابهة الجمال .. لحظة من لحظات التبرى والتخلى

عن كل الدعاوى والمآرب والأوطار .. والخضوع لصولة الجمال والجلال .

لحظة استنارة وإدراك وتوبة وتنازل وإعادة الحق لصاحبه .

ارتفع الحجاب .. وما كان حجابى سوى نفسى .. سوى «الأنا» المعاندة داخلى .. فما عادت فى داخلى أنانية ولا منازعة ولا ادعاء لحق .. فقد أعدت كل الحق لصاحبه .. لله وحده .. فالله وحده هو الحقيق بأن يقول : « أنا الذى هو أنا » .. إنما أقولها أنا على وجه الاستعارة .

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ (الأنفال : الآية ١٧)

﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (الأنفال : الآية ١٧)

فهذا هو الله يفعل على الدوام .. وهو الفعال لكل شىء .

وحينما يبدو أن الطبيب هو الذى يشفى والطعام هو الذى يشبع والماء هو الذى يروى والسهم هو الذى يقتل .. فإنما هى الأسباب تفعل فى الظاهر . . والله من وراء الأسباب يفعل فى الحقيقة .. هو .. أنه هو دائما .. هو .

هو الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

ولحظة الكشف أشهدتنى الإبداء والإعادة فى حكومة التفريد ومحت عنى ما يرجع إلى ذاتيتى ومحت عنى « الأنا » الأنانية داخلى .. ورفعتنى إلى ذروة معرفية .. وإلى مقام .. ما ثم إلا الله .

﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾(الأنعام :الآية ٩١)

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾(الأنعام : الآية ١٦٢)

انتهى فى داخلى كل ما يخصنى فأنا كلى لله ..محياى ومماتى ونسكى وصلاتى .

أكاد أسمع صوت الله فى قلبى .

ألق الاختيار ، ألق المؤاخذة البتة .

تنازلت ساعتها عن اختيارى باختيارى ورضيت باختيار الله وأسلمت ناصيتى لربى فسقطت عنى المؤاخذة وحقت لى المودة.. وذلك هو الإسلام الكامل .. إسلام « الأنا » لخالقها يقلبها فى الأحوال كيف يشاء .

سقطت كل الدعاوى وعدت إلى المبتدأ .. إلى الفطرة والبكارة الأولى .. حيث ماثم إلا هو .. وذلك مقام الفناء عند أهل الأشواق .

وهو حظ الأفراد الكمل والأنبياء والصديقين والأبرار يعيشونه طوال الوقت ، أما نحن فحظنا من هذا المقام لحظة .

حظنا .. شميم .. ووقفة على العتبات ذات صباح .

يقول العارف الكامل محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفرى :

بداية الوقفة ألا يكون هناك « سوى » لتكون عنده وقفة . فأنت لا تعود ترى إلا الله حيثما توجهت .

﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾

(البقرة : الآية ١١٥)

لا شىء سوى الله .

على اتساع الوجود .. لا موجود بحق إلا هو .. وإنما وجودنا مستعار منه ومقترض من وجوده وموهوب من فضله .

ومن يؤتى هذا الإحساس تكون حياته كلها سكر وعذابه كله شكر .

يقول مولانا الشاذلى لربه مبتهلا :

« خذنى إليك منى وارزقنى الفناء عنى .. ولا تجعلنى محجوبا بحسى مفتونا بنفسى » .

إنه يريد أن يستحضر تلك اللحظات على الدوام ويعيش فى هذا القرب طوال حياته .. وهيهات .. فهذا مقام لا ينال بالتمنى .. ولا يبلغه إلا آحاد .. هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى .. وصنعهم الله على عينه .

ومن يتذوق تلك اللحظات يشتاقها ويتشممها ويتحسسها من وراء الحجب والأسباب والمظاهر ويراها فى النعيم وفى العذاب وفى العطاء وفى الحرمان .

ويقول هذا العارف المشتاق :

ولولا سطوع الغيب فى كل مظهر
لأحرقنى شوقى وأهلكنى وجدى

فهو يرى ذات الحق تسطع من وراء الحجب والمظاهر تبدو له فى كل شىء فى ابتسامة الوليد وفى تفتح البرعم وفى طلعة الفجر ، وفى حمرة الشفق ، وفى زرقة البحر ، وفى عطر الورود ، وفى العطاء ، وفى الحرمان ، وفى البلاء ، وفى النعيم .

وهو يقرأ مشيئة الله تعالى فى الحوادث ويفض شفرة إرادته فى مجريات التاريخ .

والعارفون الكمل كالأطفال الأطهار يحيون فى انبهار دائم طوال الوقت ويقولون : نحن فى سعادة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف .

وهى ليست سعادة السلبية والعزلة والانقطاع بل هى سعادة إيجابية فاعلة ، فالكاملون منهم مثل سيدى أبو الحسن الشاذلى وعبدالقادر الجزائرى ونجم الدين كبرى حاربوا الصليبيين والتتار وقاتلوا الاستعمار فى الشمال الإفريقى وفى السودان وتصدوا للباطل حيث كان ولم يركنوا للعزلة ولا للتواكل .

وكان نجم الدين كبرى يقذف بالحجارة الفتار الذين يرمونه بالنبل .. وهو يترنم فى نشوة هاتفا : اقتلنى بالوصال أو بالفراق.. حتى سقط فى بركة من دمه ولفظ أنفاسه .

فلم يكن يبالى على أى وجه كان فى الله مقتله فهو المحب المشتاق فى جميع الأحوال .

وهؤلاء هم الأكابر الأفراد .. حظنا منهم لحظة .. وشميم حال.. وذكرى عطرة .. وتلك هى صرافة التوحيد وترنيمة لا إله إلا الله.. تجدها شذرات متفرقة فى الإنجيل وفى التوراة وفى تشيد اخناتون وفى كتاب الموتى .. وتجدها مستخلصة مجموعة مكثفة عميقة هائلة فى القرآن وكأنما هى معزوفة سماوية أو سيمفونية علوية قدسية تترنم بها السطور والآيات .

وفى بحار ابن عربى وأبو حامد الغزالى وابن الفارض وابن عطاء الله تجد سكارى التوحيد من الأكابر الذين سجدوا فسجدت قلوبهم فلم ترتفع من سجدتها حتى لفظوا أنفاسهم .. جعلنا الله منهم وختم لنا بالسلامة ببركتهم إنه سميع مجيب .

التجلى الآخر

وقد يعتب على الأصدقاء الخلصاء ويقولون لى كيف تترك نفسك لتغيب فى السكر والوصال الصوفى وقد عهدناك صاحيا لدرجة الصراخ .

وأقول لهم : إنما أسكر لأصحو وأفيق وأستجمع نفسى وأحتشد لألتحم من جديد بهذا العالم وأصرخ فالواقع الذى نعيشه أمر من أن نصارعه فرادى .. إنما نصارعه بالله .. وبدون الله لا أمل .

وكان نبينا يقول لربه : بك أحيا وبك أموت وبك أصول وبك أجول ولا فخر لى .

وقد حاول جبابرة روسيا لينين وستالين وغيرهما أن ينهضوا بروسيا بدون الله وبدون دين فسقطوا بها وسقطوا معها إلى الهاوية .

ومثل تجلى الله البديع والجميل فى سماواته والذى ذكرناه فى وقفة البحر .. كان تجلى الرحيم والرحمن والناصر والجبار والمنتقم فى غزوة بدر على قلة من المسلمين بلا عدة وبلا عدد فانتصروا على كثرة مسلحين بالعدة والعتاد .

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾(آل عمران:الآية ١٢٣)

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ (البقرة : الآية ٢١٤)

فتجلى عليهم الله بنصره .

ويأتى النصر فى الحالين على غير المألوف فتنتصر القلة على الكثرة وتنهزم العدة والعتاد أمام الفقر العسكرى والحربى .. حتى تكون حجة الله ملزمة وحتى لا يخرج من المنتصرين من يقول : إن الخطة والتكتيك والكر والفر هو الذى أتى بالنصر .. والله هو الفاعل دائما فى جميع الحالات ولكنه يتخفى بالأسباب .

وما شقت عصا موسى البحر ولا ابتلعت ما يلقى السحرة من أفاع وثعابين ولا فجرت عيون الماء من الصخر .. ولكن الله هو الفاعل من وراء الأسباب وتلك مشيئته وكلمته وإنما أخفى إرادته فى أسبابه .

وإنما يكون التجلى أحيانا باهرا ساحرا وخالبا للألباب لينقطع الشك وما السيول والأعاصير والزلازل والبراكين والصواعق إلا جند من جنود ربك : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ .

ولا يقنط المؤمن ولا ييأس ولا يلقى سلاحه مهما تكاثر عليه الأعداء ومهما حاصرته الهموم .. لأنه يرى قدرة الله فى كل شىء.. ويرى البعوضة حاملة الملاريا مجندة ويرى الفيروس حامل الإيدز مجندا .. ويرى الإعصار مجندا .. والرصاصة مجندة.. ويرى مشيئة الله تفعل ولا سواها .

والصمود أمام المحال من صفات المؤمن لأنه يعلم أنه يصارع بيد الله لا بيده .. وهو لا يعرف الجبن ولا الخوف ولا الفرار .

ولهذا اقتضى الإيمان .. الابتلاء .. لأن الكلام سهل ولأن كل واجد يدعى أنه مؤمن وأنه مستحق للجنة .. وقد زعم الجبابرة أمام شعوبهم حتى لحظة موتهم ، أنهم كانوا يحسنون صنعا واعتقدوا أنهم يستحقون التمجيد والإشادة .. فلزم الابتلاء حتى يصحو كل واحد على حقيقته وحتى يعلم منزلته .. والله فى غير حاجة إلى الابتلاء فهو يعلم منازلنا منذ الأزل . ولكنا نحن الذين يلزمنا الابتلاء حتى نعرف أنفسنا واليوم استدار الزمان دورة كاملة ونوشك أن نقبل على معركة بدر أخرى ويتكاثر علينا الأعداء من خارجنا ومن أنفسنا ونتراجع حتى يصبح ظهرنا إلى الحائط.. ويجثم علينا مستقبل مظلم .. ونعود أحوج ما نكون إلى الإيمان الصحيح والمعرفة الصحيحة بالله .. فلا سلاح حقيقى إلا هو ولا حصن إلا حصنه .

وتتجمع النذر والبشارات فى الأفق .

فهل نحن فى مستوى الامتحان ؟

وهل نحن مؤمنون حقا ؟

هذا هو السؤال الذى سوف تجيب عنه السنوات العصيبة القادمة .

ماذا وراء بوابة الموت

٨

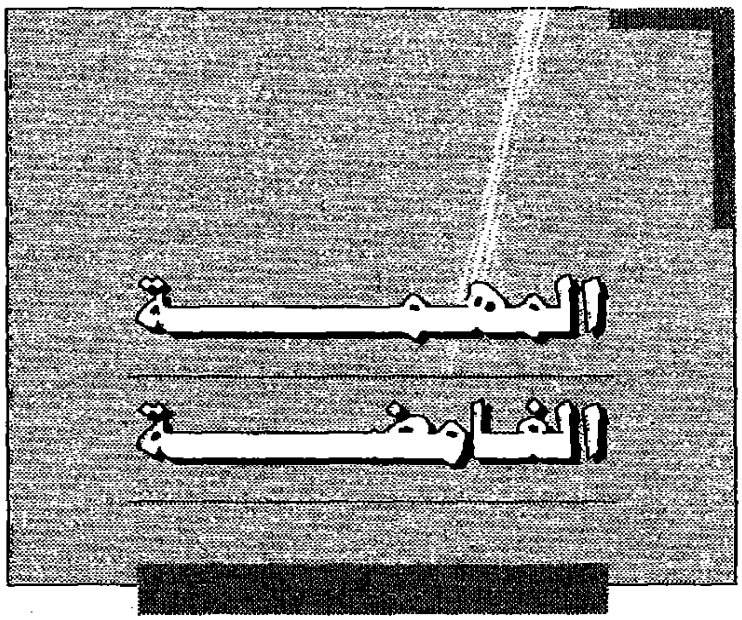

ماذا تريد منا الطبيعة ؟..

هل كل واحد منا جاء إلى هذه الدنيا بمهمة .. وتكليف .. ورسالة عليه أن يؤديها ؟

هل الميلاد والنزول على هذه الأرض .. كان له سبب وغاية ؟

فى بريدى كل يوم أسئلة حائرة من هذا اللون .

لماذا خلقنا .

لماذا جئنا إلى هذه الدنيا ؟

ماذا يراد بنا أن نفعل ؟

هل لوجودنا حكمة وسبب وغاية ؟ أم أننا خلقنا لنموت والمسألة كلها عبث وسخف كما نقرأ فى كتب فلاسفة العبث ، وكما نرى فى مسرح اللامعقول ؟ .

وهل دورنا فقط أن نواجه هذا السخف وبطولتنا أن نتمرد عليه ونتحداه كما يقول كامو ؟ بطولتنا أن نلعق جراحنا ونصرخ .. سنعيش برغم العذاب وبرغم الألم ، ونصطنع لأنفسنا وهما وحلما .

وهل تكون حياة تلك التى نبنيها على وهم ؟ .

سؤال خطير وكبير .

والإجابة القاطعة عليه تحتاج إلى الإحاطة الكاملة بعملية الحياة ، والإحاطة بالزمن كله .. وما دار فيه من مبدئه فى

الماضى السحيق إلى منتهاه فى المستقبل .. فى الآخرة بعد عمر طويل .

لكى تعرف لماذا قامت الحرب .. وما دورها .. لابد أن يكون لديك علم كامل بما كان يجرى قبل هذه الحرب .. وما جرى أثناءها .. وما جرى بعدها .. أما إذا كنت جنديا بسيطا فى الكتيبة تتلقى أمرا وتنفذه ثم تموت فلن تكون حياتك أكثر من لحظة فى هذه الحرب .. ولن تستشرف من مكانك رؤية تعرف منها القصة كلها بخباياها وأسرارها .

إن العلم عند القائد .. عند الخالق الذى بعث بك إلى الصفوف الأولى .. وزودك بنخيرة العمر المحدودة من ستين طلقة فى ستين سنة هى كل عمرك.

الخطة كلها فى رأسه .. أنت يتد واحد فى الخطة .. أنت ورقة فى الدوسيه .

سطر .

كلمة .

حرف .. فى كتاب رائع لا نهائى اسمه الدنيا .

ولن يستطيع الحرف أن يدرك الغاية من وجوده إلا إذا أدرك الدور الذى يقوم به فى السطر الذى يشترك فى حروفه .. وإلا إذا أدرك المعنى الذى يدل عليه السطر فى داخل المقال .. والمقال فى داخل الكتاب .

لابد أن يكون عمرك هو عمر الأبد لتحضر رواية الحياة بكل فصولها وتعرف الحكاية .

أما وأنت حالك حال ممثل فى مسلسلة إذاعية يطلق عليه الرصاص فى الحلقة الأولى ويموت .. فإن طلبه معرفة معنى

حياته .. يكون طلبا يتجاوز فيه حدوده .. ويطلب فيه المستحيل .. الجواب اليقين فى هذا السؤال إذن غير ممكن .

وكل مانستطيع أن نفعله هو أن نحدس .

ونخمن .. ونشطح بذهننا .

وأنا أحاول دائما أن أقرأ الإجابة .. لا من كتاب ولا من نظرية.. ولا من عقيدة .

ولكنى أحاول أن أقرأ الإجابة من التاريخ نفسه .. من حكاية التطور .. من استقراء الطبيعة مباشرة .

أنا أحاول أن أفهم ماذا تريد الحياة بنباتاتها وحيواناتها وماذا فعلت بهذه المخلوقات على مر العصور .

الحياة لها حكاية .

لقد بدأت بسيطة على شكل ميكروب .. خلية واحدة تقوم بكل الوظائف .. تتنفس وتتغذى وتنمو وتتحرك بدون أجهزة متخصصة.

ثم انقسمت الخلية إلى خليتين .. وكل خلية إلى خليتين وخرجت من الخلية الواحدة أعداد لا حصر لها من الخلايا .

ثم بدأت هذه الخلايا تتجمع فى قبائل وقطعان تتحرك معا وتتعايش معا .. ثم تلاصقت هذه الأعداد .. لتؤلف مخلوقات مركبة عديدة الخلايا ذات أجهزة متخصصة .. أقسام من خلاياها للتنفس.. وأقسام للتغذى .. وأقسام للحركة.. وأقسام للإفراز .. ونشأ النبات والحيوان المتطور .

وبمضى الأجيال والأحقاب الطويلة .. نشأت فصائل من النبات والحيوان .. كل منها تكيفت مع بيئتها .. نباتات الصبار فى الصحارى اتخذت لنفسها أوراقا ، وسيقانا لتختزن فيها الماء ..

والحيوانات المائية اتخذت لها زعانف لتسبح .. والحيونات البرية اتخذت لها أرجلا لتمشى .. والحيوانات الجوية اتخذت لها أجنحة لتطير .

مرحلة بعد مرحلة .. انتقلت الحياة من الوحدة إلى التعدد .. ومن البساطة إلى التركيب .. ثم مزيد من التركيب .. وهو تركيب له غاية واضحة .. هو سيادة الحيوان على بيئته .. وسيطرته على ظروفه .. الأجنحة أعطت الطائر القدرة على ركوب الجو والزعانف منحت الأسماك القدرة على ركوب البحر .. والأرجل منحت الدواب القدرة على الدبيب على البر .

وحينما ظهر الإنسان استطاع عن طريق عقله أن يقفز قفزة واسعة .. فهو لم ينتظر مليون سنة لتنمو له أجنحة يطير بها وزعانف يسبح بها .. وإنما اخترع الأدوات .. اخترع العربة والباخرة والطائرة والغواصة والصاروخ .. وهى أعضاء جديدة حديدية أضافها إلى بنيانه وانطلق يغزو بها الكون .. ولكنه مازال يجرى فى نفس الخط الذى كان يسير فيه الميكروب .. من الوحدة إلى التعدد « من الفرد إلى المجتمع » ومن البساطة إلى التركيب .. ومن التركيب إلى مزيد من التركيب « الاختراعات والقوى الآلية التى تزداد تركيبا وتعقيدا يوما بعد يوم .. وبالحياة المدنية التى يعيشها والتى يتعقد فيها كل شىء بشكل مطرد .. من الكساء إلى الغذاء إلى الدواء إلى المعاملات والتنظيمات الخ .. الخ»

ومرة أخرى كان هذا التعقد يهدف إلى نفس الغاية التى هدف إليها الميكروب فى تطوره .. كان يهدف إلى السيطرة على البيئة والسيادة على الظروف .. إلى ركوب الطبيعة واستغلالها وقيادتها بدلا من الخضوع للطبيعة والانقياد لها والتقيد بأغلالها .

كان يهدف إلى القوة والقدرة والمعرفة والوعى والحرية ويكافح فى سبيل الاستمرار والبقاء وهزيمة الموت : وفى سبيل أن يكون الإنسان هو السيد .. هو القدر .

ونحن حينما نبنى سدا عاليا ننظم به ماء النيل .. نحن نسير فى خط التطور ...وفق الغايات العليا المكتوبة فى سفر الحياة : وهى أن نسود الطبيعة وننظمها ونستغلها ونخط قدرنا وقسمتنا بأنفسنا .

الحياة إذن فيها غاية .

وهى برغم الموت .. وبرغم الألم والمرض والشيخوخة والشر والعبث .. برغم كل هذا تبدو متماسكة متصلة الحلقات منطلقة إلى غايتها مكرسة فيها الزمن كلها والخليقة كلها جيلا بعد جيل .

هناك مهمة ورسالة وتكليف .. كل منا ينزل إلى الأرض وفى عنقه هذا التكليف .. أن يضيف طوبة جديدة إلى القلعة الحصينة التى بنتها الحياة لتتحصن فيها وتقود منها التاريخ وتسوس الكون والطبيعة لصالحها .

ونحن مزودون من أجل هذه المهمة بجميع الأدوات الضرورية بالعقل والإرادة والإصرار ، ومزودون بتراث من العلوم والمعارف والخبرات .

نحن الوارثون لكل هذه المعارف لكى نضيف إليها .. ويضيف الذين يأتون بعدنا فى سعى متصل .. لا يعنى فيه الموت شيئا .. ولا يؤدى إلى أى انقطاع .. وكأنما الإنسانية كلها .. والحياة كلها مخلوق واحد .

حتى الجماد كان له فى سفر التطور شأن مماثل .. فقد خضع لنفس الناموس .. فمن ذرة الأيدروجين البسيطة المؤلفة من

ألكترون واحد وبروتون واحد .. من هذه الوحدات الأولية .. وبدخولها فى علاقات .. نشأت ذرات أكثر تركيبا .. وأكثر تعقيدا.. مرة أخرى .. انتقال من البساطة إلى التركيب ومن الوحدة إلى التعدد حتى نصل إلى ذرة اليورانيوم وهى ذرة ثقيلة نشطة ترسل إشعاعا .

ومن ذرة الكربون القلقة المتعطشة إلى الاتحاد بالذرات الأخرى نشأت سلاسل المواد الهيدروكربونية وهى مواد أكثر تراكبا وأكثر تعقدا ، حتى نصل إلى جزىء البروتين الحى فنصل إلى أكثر الوحدات المادية تعقدا وتراكبا وثقلا .

وهناك نظرية فلكية تقول : إن كل شىء نشأ من النور من هذه المادة اللطيفة المفرطة فى البساطة .. هذا الإشعاع المؤلف من فتافيت مادية مفرطة فى الصغر .. اسمها الفوتونات .. هذه الوحدات التى هى أصغر وحدات الكون وأسرعها حركة وأبسطها تكوينا فتافيت أشعة جاما .. وبيتا والأشعة الكونية .. هذه الوحدات التقت فى فضاء الكون الشاسع فى مكان ما ونشأت منها تواليف هى التى أنتجت فيما بعد الألكترون والبروتون .. ومن الألكترون والبروتون تكونت ذرة الايدروجين .. ثم سائر الذرات .. إلخ .. من البساطة إلى التركيب ثم إلى مزيد من التركيب.

هناك خط سير إذن .

الحياةليست خبط عشواء .. ولا مصادفات ولا عبث .

والكون ليس حركة بلا وجهة .

وإنما حركة ذات وجهة .

المادة تتطور فى خط سير واضح من الوحدة إلى التعدد ..

ومن البساطة إلى التركيب . ومن العجز إلى القدرة .. ومن العماء إلى الرؤية . ومن الخضوع للطبيعة إلى السيادة على الطبيعة .. وإخضاع الطبيعة .. ومن الظلام إلى النور ومن الجهل إلى المعرفة .

وقد يعود السائل فيسأل مرة أخرى .

ولماذا تكون هناك حياة من الأصل ، ولماذا يكون هناك أى اتجاه إلى السيادة على الطبيعة .

ألا يكفى أن تكون هناك طبيعة .. ما الداعى لأن تعى الطبيعة نفسها .. وتقود نفسها بنفسها .

والجواب أنها بهذا تحقق الحرية.

بالمعرفة والوعى والقوة والسيادة يكتشف الإنسان نفسه ويمتلك كنوز عقله .. ويسيطر على الطبيعة حوله ويحقق حريته ووجوده ويعرف نفسه ويعرف ربه ويبلغ السعادة .. والسعادة لا تبحث لنفسها عن سبب .. فهى دائما غاية ذاتها .

ويعود السائل فيقول إن هذا الكلام يفسر لنا التطور والتاريخ واتجاه الطبيعة فى سيرها .. ولكنه لا يفسر وجودها لماذا وجدت من الأصل .

لماذا يكون هناك امتلاء ولا يكون هناك خلاء ، لماذا وجود لا عدم ؟

والعقاد رحمه الله له رد على هذه المعضلة . فهو يقول بأسلوبه المنطقى .. إن العدم معدوم فلا وجه للقول بوجوده أو مناقشة وجوده .

ومادام العدم معدوما فالوجود امتلاء صرف لا نهاية له ولا آخر ولا حدود .. لأن الوجود لا يمكن أن يحده سوى العدم والعدم معدوم .

فـالوجود إذن لا مـبدأ له ولا منـتهى .. ولا يصح السـؤال عن متى خلق .. ولم خلق .. فـهو أبدى فى الزمان ، ولم يكن مـعدوما ليقـال .. متى خلق .. وهى حجج منطـقية ترضى العـقل .. ولكنها لا تشبع الـشعور الذى يعـانى الموت .. ويحس بدبيـب العدم فى زحف الشيخوخة على الأوصال .

إن السؤال يفرض نفسه برغم لا معقوليته ويلح على الحواس .

ولم كان كل هذا .

وما الحكاية .. وما القصة .

ولم بدأت .. مادام مصيرها أن تنتهى .

هناك سر .

هناك ثغرة .. فى هذا البناء المنطقى الذى بنته لنا الفلسفة .

إن كل حجج الفلسفة تنهار أمام ضـربات الموت وكأنها خيوط عنكبـوت .. وكأنها كـلام .. مجـرد كلام .. لا يشفـى ولا يشبع .. ولا يزن شيئا أمام واقع مر أليم شاخص أمام الحواس .

هذا البناء المتهاوى من المنـطق لا يمسك نفسه .. وهو يكشف عن قصوره .

هناك سر .

وأنا اعتقد أن هناك أسـرارا لا سرا واحدا . وأن علمنا لا يغطى كل شىء وأن عمرنا المحدود لا يمـكن أن يعطى إلا لمحة مجدودة من الحـقيـقة .. وإننـا نحن جنود الكتيـبـة التى اسمـها « القـرن العشـرين» موفدون فـى مهمـة محدودة تنتـهى بنهاية عـمرنا .. ولا يمكن أن نعرف خبايا الخطة كلها .. فالخطة فى رأس القائد .. الخـالق .. ونحن مـجرد بند فـى الخطة .. ورقة فـى الدوسيـه .. حرف .. ولا يمكن لنا أن نحيط بالحقيقة .

الحقيقة لا تدركها إلا عين تنظر من ربوة الأبدية على الزمن كله.

كل ما أستطيع معرفته هو أن هذه الحياة ليست عبثا ولا سخفا.. وإنما هى نظام محكم له غايات .. وأننا نسير كالجيش.. لنا مسيرة .. ولنا مخطط وأنا لا أعرف المخطط كله .. وإنما أعرف القليل جدا .

ولكن على مرور الزمن اللانهائى .. تكتشف الحياة طريقها .. وتزداد معرفتها قليلا بقليل .. فيعرف أحفادى ما لم أعرف أنا .. ويتصل مجرى العلم الذى لا يبدو أنه ينقطع أبدا بموت أحد .. وإنما هو يستمر يحفر طريقه فى الظلمة .

ولا يوهن من عزمى أنى موفد فى هذا الطريق فى بعثة غامضة.. ومهمة غير مفهومة .. فمنتهى شرفى أنى فعلت كل ما أستطيع .

وإذا كان كل ما وصلت إليه أن هدف هذه الرحلة هو التكامل .. تكامل القوة .. وتكامل الحس .. وتكامل السمع .. وتكامل البصر .. وتكامل العقل .. وصولا بذلك إلى معرفة الإنسان لنفسه وإدراكه لربه ومن ثم عبادته .. فإن جلال هذه الأهداف وعظمة هذه الغايات هى مبرر كاف لمشقة الطريق .

وهل بعد الله هدف .. ؟؟!!

وهل بعد الله سؤال .. ؟؟!!

ماذا وراء بوابة الموت

٩

كلام فى الحب

الحب والهوى والغرام خداع ألوان، ما نراه فى المحبوبة مثلما نراه فى قوس قزح، جمال ألوان قوس قزح ليس من قوس قزح نفسه ولكنه من فعل نور الشمس على رذاذ المطر المعلق فى الهواء.. فإذا غابت الشمس وجف المطر اختفت الألوان وذهب الجمال.

وهكذا محبوبتك جمالها فيما يتجلى عليها من خالقها.. فإذا انقطع عنها التجلى شاخت ومرضت وذبلت وعادت قبحا لا جاذبية فيها.. إن ما كانت تملكه من جمال لم يكن ملكا لها بالأصالة، بل كان قرضا وسلفة.

حتى السجايا الحلوة والنفوس العذبة والخلال الكريمة هى بعض ما يتجلى فينا من أسماء خالقنا الكريم الحليم الودود الرءوف الغفور الرحيم.

أليست هذه أسماؤه..!؟

وهل نحب حينما نحب إلا أسماءه حيثما تحققت وأينما تحققت.

وهل نحب حينما نحب سوى حضرته الإلهية فى كل صورة من صورها.

والحكيم العارف من أدرك هذه الحقيقة فاتجه بحبه إلى الأصل إلى ربه ولم يلتفت إلى الوسائط ولم يدع بهرج الألوان يعطله.. ولم يقف عند الأشخاص.. فهو من أهل العزائم لا تعلق له إلا بربه.. لقد وفر على نفسه خيبة الأمل وانقطاع الرجاء وخداع الألوان.

لقد أحب من لا يهجر، وعشق من لا يفتر، وتعلق بمن لا يغيب، وارتبط بمن لا يموت، وصاحب من بيده الأمر كله وساهم فى البنك المركزى الذى يخرج منه النقد جميعه.. وهام بالودود حقا ذاتا وصفاتا وأفعالا..

وذلك هو مذهب العارفين فى الحب.

فهل عرفت.

وإذا كنت عرفت.. فهل أنت بمستطيع.

وليس كل عارف بمستطيع.

ومذهب العارفين ليس مجرد معرفة.. ولكنه همة واقتدار وكدح ومغالبة.. والنفس لا تستطيع أن تعشق إلا ما ترى ولا أن تتعلق إلا بما تشهد بصرا وسمعا وحواسا.

أما تعلق الفؤاد بالذى ليس كمثله شىء فمرتبة عليا لا يوصل إليها إلا بالكدح والكفاح والهمة.. وقبل ذلك كله.. بالتوفيق والرضا من صاحب الأمر كله.

ولهذا أدرك العارفون أن هذا أمرا لا يمكن الوصول إليه إلا ركوعا وسجودا وابتهالا وعبادة وطاعة وخضوعا وخشوعا وتذللا وتجردا وإن هذه مرتبة لا تنال بشهادة جامعية ولا بماجستير أو دكتوراه، أو تحصيل عقلى.. ولكنها منزلة رفيعة لا مدخل إليها إلا بالاخلاص وسلامة القلب وطهارة اليد والقدم والعين والأذن ولا سبيل إليها إلا بخلع النعلين.

تخلع جسدك ونفسك.

وليس مقصود القوم هنا هو الزهد الفارغ والتبطل.. وإنما أن تخلع حظك وأنانيتك وشهوتك وطمعك وشخصانيتك، وأن ترتد إلى الطهارة الأولى اللاشخصانية التى تعطى فيها وتحب دون نظر إلى حظ شخصى أو عائد ذاتى.. فهى حالة عمل وعطاء وبذل وليس حالة زهد فارغ وتبطل. وهى فى ذروتها حالة فداء وتضحية فى

سبيل إعلاء كلمة الله.. تضحية لا تنظر إلى نيشان أو نصب تذكارى. ولكنها تبذل المال والدم والنفس لوجه الله وحده.

ويقول العارفون إن مائدة الاستشهاد هى أعلى موائد التكريم ولا دخول إليها إلا ببطاقة دعوة من صاحبها. ولا دخول إليها اقتحاما أو قهرا وتبجحا.. وإنما هى دعوة من الكريم يتلقاها صاحب الحظ بالتلبية والهرولة ويتلقاها المحروم بالتكاسل والتخاذل.. والتخلف.

ذلك هو الحب فى مذهب القوم وهو غير الحب فى مذهب بعض منتجى أفلام السينما ومؤلفى الرومانتيكيات، وهو أيضا غير الحب عند كثيرين من الناس. حيث الحب هوى ونار وشهوة ولحظات تتألق بالشعر ثم ما تلبث أن تخبو وتنطفىء وتترك رمادا من الأكاذيب.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف : الآية ٢١)

﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ (العنكبوت : الآية ٦٣)

﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ (لأنعام : الآية ١١٦)

﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظنا﴾ (يونس : الآية ٣٦)

﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ (النجم :الآية ٢٣)

﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾ (الفرقان : الآية ٤٤)

هكذا يعلمنا القرآن أن الكثرة لا تعرف أما العارفون فقليل ما هم ولكن الصحافة التى تخاطب الكثرة والسينما التى تتملق الجماهير والمؤلفين الذين يطمعون فى الرواج والشعراء الذين يتبعهم الغاوون يتغنون بألوان أخرى من الحب. ويتيهون معها فى أودية الغفلة التى تنتهى بنا إلى جنون قيس وانتحار جوليت وسقوط راهب تاييس ومباذل فالنتينو وجرائم آل كابونى وموائد مونت كارلو.

وهو أمر قديم قدم التاريخ منذ أيام بابل، ومنذ أيام أنطونيو

وكليوباترة ومنذ أيام الفراعنة والإغريق والرومان.. ونقرأ فى كتاب الموتى هذه السطور التى كتبها الحكيم المصرى منذ خمسة آلاف عام.

لا تنظر إلى امرأة جارك فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك.. إنها لحظة قصيرة كالحلم والندم يتبعها، إنها معارف قديمة منذ أيام آدم. وقصة بائدة منذ مقتل هابيل.

ولكن لا أحد يذكر.. ولا أحد يعتبر.. ولا أحد يتعلم من الدرس.

وأكثر الذين يعرفون لا تنفعهم معرفتهم بسبب ضعف الهمم وتخاذل الأنفس وغلبة الشهوات.

إن السلالم إلى الأدوار العليا موجودة طول الوقت، ولكن لا أحد يكلف نفسه بصعود الدرج والأغلبية تعيش وتموت فى البدروم.

ولو كلف أحد منهم نفسه بالصعود.. وتحمل مشقة الصعود وشاهد المنظر من فوق، لبكى ندما على عمر عاشه فى البدروم بين لذات لا تساوى شيئا ولكنه الضعف الذى ينخر فى الأبدان.

والبشرية تسير من الضعيف إلى الأضعف، والأجيال الجديدة أكثر ضعفا وأكثر تهافتا على العاجل البائد من اللذات، واقرأ المقال من أوله واسأل نفسك. من أى مرتبة من البشر أنت. هل أنت عارف؟ وإذا كنت عارفا. فهل أنت بمستطيع؟

وابك ما شئت من البكاء فلا شىء يستحق أن تبكيه. لافقرك ولافشلك ولا تخلفك ولا مرضك.. فكل هذا يمكن تداركه أما الخطيئة التى تستحق أن تبكيها فهى خطيئة البعد عن إلهك.

فإن ضيعت إلهك.. فلا شىء سوف يعوضك.

وكل أحلام الشعراء لن تغنيك شيئا.

ماذا وراء بوابة الموت

١٠

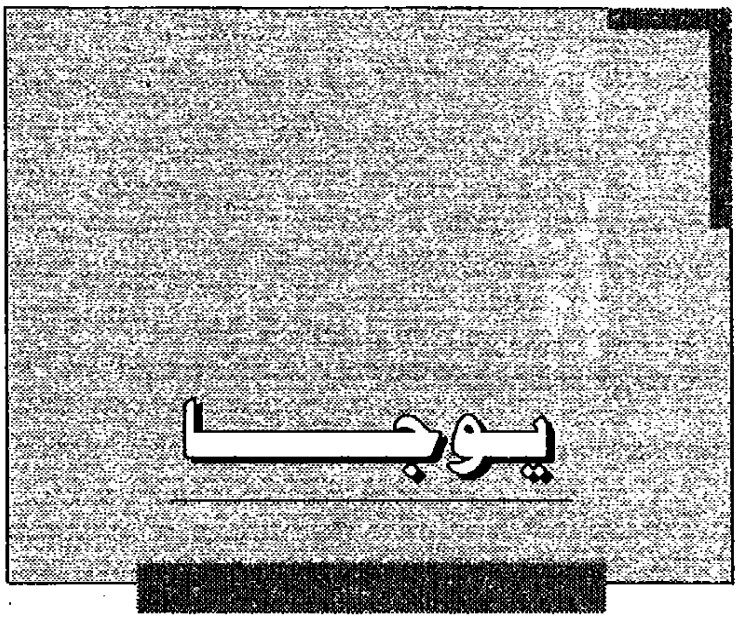

سـعـيت وراء علمـاء التـشـريح لأعـرف مـا هو الإنســـان.. سـرت وراء المـــشـرط وهو يـنقب فى الأحـشاء والمـصـارين واللحم والعظم.. وهو يفـتح القلب ويـتـتبع الأعـصاب حتى نهـايتهـا.. وهو يقطع المخ نصفين، ثم يقطع كل نصف إلى نصفين.

وبعد ثلاثة آلاف صفحـة من كتب التشريح لم أصل إلى شىء وكأنما فتحت حقيبة فوجدت داخلهـا حقيبة ثم حقيبة، وفى نهاية المطاف اكتشفت أنى مازلت واقفا فى مكانى أدق على الباب نفسه من الخارج، لم ألج إلى الداخل قط.

كنت طول الوقت اتحـسس كـسوة ذلك الإنســان لأكتـشف أن القناع الذى يحـجبـه ليس ثيابه وحـدها.. وإنما جلده ثـوب آخر.. ولحمه وشحمـه وعظامه كلها ثياب.. أما هو نفسه فبـعيد.. بعيد.. تحت هذه الأقمشة السميكة من اللحم والدم.

قالت لى كتب التـشريح إن الإنسان مجموعـة من الأحشاء فى قرطاس من الجلد.

ولكنها لم تصف لى الإنسان على الإطلاق.

وإنما وصفت ثيـابه أما قلبه، أما عواطفه، فـإنها ليست فى تلك الكتب.. إنها فـينا نحن الأحياء.. إنهـا الزامر الذى ينفخ من الداخل فى ذلك البوق الجـسدى الذى يتألف من الفم واللسان والشـفتين

واليدين والرجلين فتنطق وتتحرك كأنما هى دمى خشبية تحركها خيوط خفية من وراء خباء.

إنها العاطفة.. الإرادة.. الروح.. النفس.. الـ أنا ـ سمها كما تشاء.. ولكنها دائما غاية فى الوحدة والبساطة.. وراء هذا العديد المتعدد من الأعضاء هناك وحدة هناك دائما واحد فقط يتكلم من داخل المعمار الجسدى المعقد التركيب المتعدد النوافذ والشرفات.. واحد فقط بالرغم من هذه الألوف المؤلفة من الأنسجة والملايين بلا عدد من الخلايا.

فإذا نظرت إلى الطبيعة حولك بما فيها من إنسان وحيوان ونبات لمست مرة أخرى نوعا ثانيا من الوحدة.. فهذا الشتيت المختلف من أشكال الحياة يخفى وراءه وحدة.

وأنت والشجرة تتألفان من المواد ذاتها.. كربون وماء وأملاح معدنية.. وكلاكما يتحول بالاحتراق إلى فحم وكل أنواع الحياة تنهدم بالموت فتستحيل إلى تراب.

أكثر من هذا، يقول لك الفلكى : إن هذا التراب يحتوى على المواد نفسها التى تتركب منها الشمس والنجوم والكواكب.. وإنك مهما أوغلت فى السماء بين النجوم تجد دائما الشىء نفسه. والمواد ذاتها.. كل العالم من مادة واحدة أولية لا يمكن أن تكون كل هذه مصادفات وإنما هى أصبع تشير إلى أن هناك وحدة نسيج فى هذا الكون المتسع العظيم وأنه بالرغم من الكثرة الظاهرة والتعدد والاختلاف فى الأشياء فإنها فى الواقع ليست مختلفة.. وإنما هى مجرد عمائر وتراكيب مختلفة لشىء واحد.

كما تظهر الطاقة مرة على شكل كهرباء. ومرة على شكل حرارة.. ومرة على شكل ضوء. ومرة على شكل مغناطيسية وهى

دائما الشيء الواحد ذاته.

الوحدة.. هذا هو موضوع اليوجا.

والمعنى الحرفى لكلمة يوجا بالهندية هو الاتحاد وإدراك الوحدة فى الأشياء.

أنت وأنا وهو وهم شيء واحد.

هل تستطيع أن تدرك هذه الوحدة؟

علوم اليوجا تقول إنك لا تستطيع أن تدركها إلا إذا تحررت من تقاليدك.. وأخضعت جسدك وعواطفك وغرائزك وعقلك تماما إذا أردت أن تسمع صوت الواحد فى داخلك فلابد من إسكات صوت المتعدد أولا.. لابد من إسكات صوت الجسد والنفس والغريزة والرغبة والعقل.

وإخضاع الجسد تختص به علوم «الهاتايوجا» وهى التمرينات الرياضية المعروفة.

وإخضاع العقل تختص به علوم «الراجايوجا».. وهى تمرينات على التأمل والتركيز.

وإذا استطعت إسكات كل شيء فسوف تسمع من أعماق الصمت فى داخلك صوت الواحد.

سوف تشعر بالقرابة الحميمة بينك وبين الأشياء.. سوف يعزف فى داخلك لحن الانسجام بينك وبين العالم.. إذ تدرك التوافق العميق بين عناصرك وعناصره.. وتسودك طمأنينة قدسية فلم يعد هناك داع للتعجل.. ما يفوتك باليمين سوف تحصل عليه باليسار وفى الهند يسمون هذا الواحد «اتمان» .. وفى «صلاة هندية قديمة لهذا الواحد يقول الشعر السنسكريتى :

إذا ظن القاتل أنه قاتل

والمقتول أنه قتيل
فليسا يدريان ما خفى من أساليبى.
حيث أكون الصدر لمن يموت والسلاح لمن يقتل
والجناح لمن يطير
وحيث أكون لمن يشك فى وجودى
كل شىء حتى الشك نفسه.
وحيث أكون أنا الواحد وأنا الأشياء.

وكأنما شـعر جميع المفكرين بهذا الواحـد الخفى. وحاول كل منهم أن يعـبر عنه بطريقـته.. فى فلسفـة شوبنهـور كان اسـمه «الإرادة». وفى فلسفة نيتشه كان اسمه «القوة» وفى فلسفة هيجل «المطلق» وفى فلسـفة مـاركس «المادة» وفى فلسـفة برجـسون «الطاقة الحية» وفى الأديان السماوية اسمه الله.

اتفقت جميع الأصابع التى تشير إلى أن هناك شيئا داخل خباء ذلك الكون يحرك خيوطه.. وكل الخلاف هو خلاف أسماء.

ولهـذا تقول علوم الـيوجـا.. لا تحاول أن تـسمى مـا لا يمكن تسميته.. تأمل.. لا تنطق بحرف.

عليك بالإصـغاء إلى صوت الصـمت.. ثم جاء الإسـلام بأجمل وأصـدق تعـريف بذلك الذى وراء الصـمت.. لم يخلط الـخـالق بالمخلوق كـما خلطت اليوجا الهندية كل شىء فـى وحدة الوجود فـجعلت من القـاتل والقتـيل والسكين شـيئـا واحدا تضـيع معـه المسئـولية ويضيع الجزاء فى ضـباب الشعر.. وإنمـا قدم القرآن أنقى صـور التـوحـيـد وأرقى صـورة لوحـدة الخـالق ووحـدة المخلوقات.. فتوحدها لأنها منه.. أما هو فـمتعال عليها.. سبحانه.. ليس كمثله شىء.

السم والترياق

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد

الله خلق لكل شيء آفته التى تعتدى عليه.

خلق القطن وخلق دودة القطن.

خلق النبات وخلق الجراد.

خلق الأسنان وخلق السوس.

خلق العين وخلق الرمد.

خلق الأنف وخلق الزكام.

خلق الثمرة وخلق العفن.

خلق الإنسان وخلق معه جيشا من الأعداء لاغتياله : من بعوض، وديدان، وبلهارسيا، وميكروبات، وسل وجذام، وتيفود، وكوليرا. وخلق الحياة وخلق الحر والبرد، والصقيع ورياح السموم لم يرد بالدنيا أن تكون دار سلام.. وإنما دار حرب وصراع وبلاء وشد وجذب وكر وفر.

لأنه علم بحكمته أن حياتنا الدنيوية إذا أخلدت إلى الراحة والأمن والدعة والسلام ترهلت وضعفت وانقرضت.

وعلم الفسيولوجيا يقول لك إن سم الميكروب يحفز النسيج إلى الاحتشاد.. كما تدفع لسعة البرد الدم إلى الشرايين.

إن العدوان المستمر الذى جعلته الطبيعة شريعتها فى الأرض أراده الله لمخلوقاته تحديا مستمرا.. ليشحذ كل مخلوق وسائله ويبدع ويبتكر ويحتشد ويخرج أحسن ما يختزن من طاقات، ويكون دائما على أكمل الصور الممكنة.

وبدون هذا التناقض والصراع والكفاح كان مصير الحياة إلى ضمور وتخاذل وتكاسل ثم انقراض تدريجى.. وكما خلق لنا الله المرض خلق لنا الدواء فى عشب ينمو تحت أقدامنا.. وفى شراب

فى الينابيـع التى تتـفـجر حـولنا فـى كل مكان.. وفى العناصـر الكثيرة تحت الأرض وفوقها.. وأمدنا بالعقل الذى يبحث وينقب.

وللحكمة ذاتها ألقى الله وسط الدول العربية المتخاذلة المترهلة بعدو شرس هو إسرائيل.. ومكن هذا الجسم الغريب ليكون حافزا إلى اليقظة والاحتشاد.

إسرائيل هى الميكروب.. هى التحـدى القائم فى الجسم العربى ليثبت حـيويته ويشـحذ طاقـاته ويهب من نومه الطويل وبرغم كل ظواهر اليأس فأنا متـفائل شديد الثقة بالمستـقبل فالسنن الكونية والقوانين الإلهية تعمل عملها فـى الكيان العربى ومانعيش فيه من كـــارثة أراها على الـعكس مظهـــرا من مظـاهر القـــانون الأزلى لتصحيح الأشياء.. إن خلافاتنا الداخلية وانقساماتنا الداخلية أشبه بالصديد الذى يتخلف فى الجراح من جـراء التهاب النسيج بالسم الميكروبى والأجـسام المضـــادة التى يفرزها. وهى مرحلة يليـها تدفق الدم من النســيج المحـتقن ليـغسل كل شىء ثم يعـقب ذلك الالتئام والشفاء.

إن الذى يجعل من واقعنا الحالى سببا لليأس لا يفهم الدنيا ولا يفهم التاريخ.

لقد تقاتلت الأمة الأمريكية قبل أن تتوحد فى حرب شرسة بين شمالها وجنوبها.. وكذلك الصين.. فلم يقل أحد إنها انتهت، أو إنها كتبت وثيقة فنائها.. بل العكس هو مـا حدث.. فقد كتبت بهذا الدم ميلادها.

وفى الحساب الأزلى للأرباح والخسائر.. وفى سجل التاريخ.. لا تضـيع نقطة دم واحدة.. ولا تهـدر ضحـية.. وإنمـا لكل شىء دوره فى صياغة النصر النهائى.

والنصر دائما للحق والخير.

ماذا وراء بوابة الموت

١١

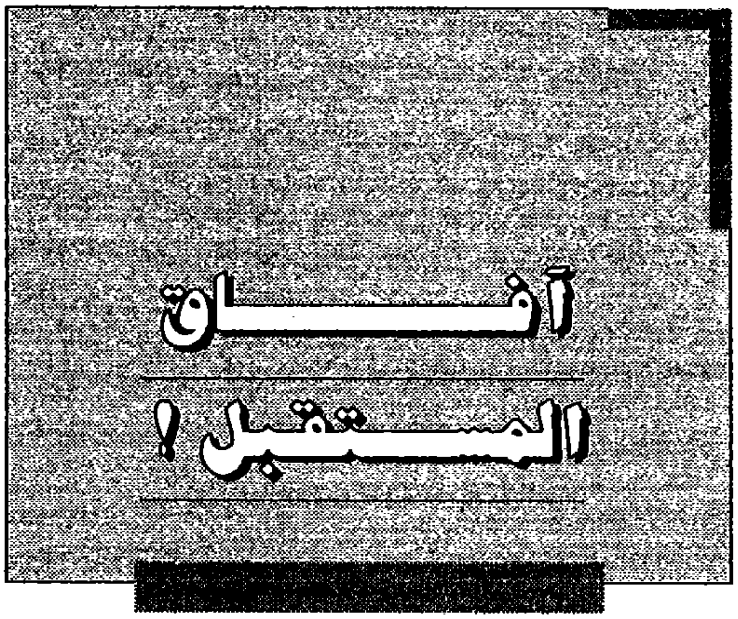

إن التاريخ يعلمنا درسا عظيما فى التواضع.. فمن الممكن أن ننقرض تماما ولا يبقى لجنسنا أثر.. وتتطور وتسود الحياة أجناس أخرى يخرج لها أحفاد وارثون عقلاء، وربما يكون السادة الجدد من نسل النمل أو النحل أو الصراصير.. ومن يدرى.. إن تاريخ الحياة يروى لنا حكاية سلالة عظيمة هائلة الحجم والقوة اسمها الديناصورات كان كل منها يمشى كأنه جبل يتحرك، وعاشت بدل السنة مائة مليون سنة تستمتع بهذه السيادة، ثم جاء العصر الجليدى فأهلكها لأنها لم تستطع التكيف.. لم تكن عندها وسيلة لرفع حرارة دمها سوى الجلوس فى الشمس.. وحينما طمر الجليد الأرض نفقت هذه السلالة الجهنمية كالكلاب.

ولم تترك أثرا لأنها لم تجد الشمس التى تتشمس فيها.

ونحن إلى الآن لم نعمر على الأرض مائة مليون سنة كما عمرت الديناصورات. وإنما عمرنا فقط مع التجاوز ومع ضم أقدميتنا القردية المزعومة عشرة ملايين سنة.. وقد تضخم عقلنا وذكاؤنا وتطورت أدواتنا. فأصبحت طائرات نفاثة وقنابل ذرية. فإذا لم نتقدم عاطفيا وإنسانيا بقدر ما تقدمنا عقليا.. إذا لم نستطع أن نكون محبين مشفقين رحماء بقدر ما نحن أقوياء، فسنهلك أنفسنا لا محالة.. ستهلكنا قوتنا نفسها فى حرب ذرية لا رحمة فيها.. ولن تأسى لنا الحياة.. فالحياة علمتنا أنها لا تعرف

الحزن ولا الندم وأن من يموت وينقـرض من أبنائها عندها مليون مليون من يخلفه. وعندها من الحيل ما يفوق الأساطير.

وحـينما نفنـى تحت وابل الدمار الذرى سـوف تهـيل الحيـاة التراب فوقنا، ثم يمضى ركبها العظيم يتطور فى اتجاه آخر ليلقى إلى الأبدية بمـحصـول جديد من الخـلائق، ولسان حـالها يـقول فلنجرب مـرة أخرى.. إننا لسنا فى عـجلة فأمامـنا زمن لا نهائى نجرب فيه أمامنا الأبد كله لقد تقدمنا علميا بدرجة ملأتنا بالغرور، فها نـحن نسافر إلى القمـر ونرسل السفن الفضائيـة إلى المريخ ونصور جـو الزهرة ولكننا لو تأملنا هذا التـقدم العلمى لـوجدناه يبعث عـلى الحزن أكثـر ممـا يبعث على الفـرح.. إن الإنسان الذى خطا ربع مليون ميل فى الفضاء إلى القـمر عجز عن خطوة طولها بضعة أمـتار ليعاون زملاء له يموتـون بالجوع فى الهند وآخرين يسحقـهم الظلم فى القدس وفيتنام . وأمريكا تلتـقى بروسيا على سطح القمر وتعجز عن أن تلتقى بها فى مجلس الأمن..

لقـد اقـتـربـت المـسـافـات بين الكـواكب والنجـوم وازدادت المسافات بين الناس على الأرض بعدا !

ها نحن نتبـاعد عن بعضنا أكـثر فأكثـر كل يوم وكأننا شظايا تتناثر فى الفـضاء ويعجـز الواحد منا أن يسـمع الآخر أو يوصل إليه رأيا أو يلقى له أذنا أو يفـتح له قلبا. لقد بدأ الإنسـان يسيطر على الكون، ولكنه مـازال عاجزا عن السـيطرة على نفسـه! وبقدر ما ازدادت قوة ذراعيه بقدر ما نضبت الرحمة من قلبه.

إن إنسان القـرن العشرين شـمشون الجسـد قدم على الأرض وقدم عـلى القمـر ولكنه قزم الروح مـراهق العقل يمكن أن يـدمر نفسه فى غرور دون أن يدرى.

إن الخروج إلى الفضاء الذى يبدو فى الظاهر معجزة علمية هو فى الحقيقة عملية هروب نفسية من عجز الإنسان الروحى ومشكلاته المتفاقمة على الأرض وهى عملية هروب أنيقة ولا شك.. وهى تثبت أن الإنسان مخادع ومراوغ عبقرى يعرف كيف يغطى عجزه بأثواب مادية ساطعة البريق.

وما نراه الآن حولنا يدل على أن نمو القوى المادية أسهل بكثير من نمو المحبة فى القلوب، والارتفاع إلى القمر أسهل بكثير من ارتفاع الإنسان بأخلاقه ولو درجة واحدة.. إننا نرى قوة المادة وعجزها.

إن قوى الاقتصاد لا تستطيع أن تصنع لنا الإنسان الشريف النبيل مهما تحالفت بدولاراتها.. وإنما الأخلاق تنمو بالمجاهدة الشاقة بين القوى الروحية العميقة فى داخل الإنسان وبصراعه الدامى مع حوافز الحيوان ونداء المعدة وعواء الجنس وإغراء القوة، وهى أمور شديدة الصعوبة وتحتاج إلى درجات عالية من الإخلاص والصدق مع النفس والمواجهة اليومية والإلتحام مع عوامل الضعف وإلحاح اللذة والمكاسب السهلة فى كل لحظة.. وهى حرب شاقة تبدو إلى جوارها عملية الصعود إلى القمر.. عملية غاية فى السهولة لأن عملية الصعود إلى القمر تعتمدعلى النواميس الطبيعية.. أمثال الجاذبية.. وقوى الدفع الصاروخى، وطاقة احتراق الغازات وهى جميعها سنن وقوانين طبيعية وضعها الله فى ضبط وإحكام، وهى لا تخطىء أبدا لأن الله لا يخطىء فى حساباته.. أما علاقات الناس والسياسات الخارجية للدول فتعتمد على المصالح والأهواء والأطماع، وهى صناعة الإنسان التالفة ونتاج نفسه المعطوبة.

والهروب من تلك النفس وعطبهـا إلى فضاء الكون حيث يكون الاعتماد عـلى قوانين الله الدقيقة، هو الأمر المـأمون والسـهل وهو أسـهل آلاف المرات من عـكوف الإنسان على نـفسـه ليـصلحهـا ويقومها.. ولـكنه فى ذات الوقت هروب من رسالة الإنسان الأولى على الأرض فـواجب الإنسان الأول على هذه الأرض.. أن يعـرف نفسه ويقومها بالفكر وبالدين وبالعلم معا يصنع الإنسان نفسه.. أما بالعلم المادى وحـده وبدون إيمان وبدون خلق فلن يصنع من نفـسه إلا جـبارا ومـسخـا عمـلاقا مـشوهـا يتنقل بين الكواكب ويختـرع أسلحة بشعـة رهيبة للقـتل الجماعى يدمـر بها الكل ثم يدمر بها نفسه دون أن يدرى.

وقد أختارت مدنية القـرن العشرين هذا الطريق السهل للتطور طريق الذرة والطاقـة والكهـرباء والـحديـد والصلب والديناميـت ونبذت البـاقى معـتذرة بأنه غيـبيـات، مع أن العلم المادى نفـسه غارق فى الغيبيات. فـما هى الكهرباء؟ وما هو الإلكترون؟ وما هى الطاقة؟ كلهـا غيبـيات، نحن نستخـدم الكهرباء ولا نعرف كنهـها ونصنع الأجهـزة الإلكترونية ولا نعرف مـا هو الإلكترون، ونطلق المـوجة اللاسلكيـة ولا نعرف مـا هى الموجـة اللاسلكيـة ولا ما شكلها.. الـعلم المادى لا يعرف مـا هية أى شىء إنه فـقط يعرف العلاقات والكمـيات والقوانين، ولكنه يجـهل ما هية أى شىء.. إن حكاية الغيبيات هى العذر الكاذب الجاهز.

أما الحـقيـقة.. فـهى أن الإنسان قـد آثر الطريق السهل حـيث لا يحتاج إلى مواجهة نفسه والإلتـحام معها فى جهاد عظيم مرير فى سبيل إعادة خلقها.

آثر أن يلقى بنفسه فى البـيئة المادية محاولا تغـييرها بدلا من أن يبدأ من نقطة الأساس.

وهو يطمئن نفسه بأنه إذا تغيرت البيئة حوله فسوف تتغير نفسه وتسمو من تلقاء ذاتها.. إنها تجربة كبرى سوف يجاوب عليها التاريخ وسوف يكذبها بل لعله قد بدأ يجاوب بالفعل.. فها نحن نرى فى الناحية المادية أفاق المستقبل تبدو كلها وردية مشرقة. فهاهو الإنسان قد وصل إلى القمر.. أما فى الناحية الإنسانية فإن آفاق المستقبل تبدو محفوفة بالظلال والمخاطر والأشواك.

لقد بدأ نهار العلم وأخشى أن أقول.. بدأ ليل الإنسانية ومخاضها القاسى المرعب إن مصيرنا معلق بشىء اسمه.. عقلنا.. وما سوف يشير به علينا.. وما سوف يفعله ليتكيف مع وضع القوة الجديدة الذى وضعنا أنفسنا فيه وإذا أردنا أن نعرف ما سوف تنتهى إليه خيوط المأساة التى نغزلها. فلابد أن نعرف مزيدا عن ذلك اللغز الذى اسمه العقل.

To: www.al-mostafa.com